الإرشاد أسري
المحاضرة الأولى
"5_42"

الفصل الثانى

الأسرة كنسق اتصالى

القسم الأول : نظرية الإنساق

أولا : مفهوم النسق

تتكون الأسرة من أفراد ولكننا لا نستطيع فهم سلوكها فهما كاملا من خلال دراسة كل فرد فيها على حدة ، فلو درسنا سلوك كل عضو من أعضاء الأسرة فلن نقول إننا قد درسنا سلوك الأسرة . وتشبه « إيفلين سيبرج » Evelyn Sieburg مثل هذه الدراسة بمن يحاول دراسة سيارة وفهمها من خلال تناول كل جزء فيها على حدة. «إننا قد نستطيع بهذه الطريقة معرفة بعض الأشياء عن السيارة ، لكننا سوف لا نعرف أهم مظهر على الإطلاق إلا وهو معرفة كيف تعمل هذه الأجزاء معًا» (Sieburg,E,1985,3).

ويستند تعريف النسق System على فكرة أن الكل لا يمكن فهمه إلا من خلال دراسة أجزائه فى علاقتها بعضها ببعض ، وفى علاقتها بالعملية الكلية للأداء ، حيث يعرّف النسق طبقا لذلك بأنه نظام معقد لعناصر متفاعلة بعضها مع بعض » (Bertalanffy, 1968 , 19) أما « بير » (Peer) فيوسع مفهوم النسق إلى درجة أكبر حين يقول : « إن أى شىء يتكون من أجزاء مرتبطة مع بعضها البعض يمكن أن يطلق عليه اسم نسق (Peer , 1964,9) . ويحدد « جابر وكفافى» مفهوم مصطلح System بمعنى نسق أو نظام أو جهاز ، وباعتباره مصطلحا يشير إلى المعانى الآتية :

- يشير المصطلح بصفة عامة إلى أى كل منظم - وأصل المصطلح إغريقى . وهذا المعنى للمصطلح نجده أينما ورد مع اختلاف السياقات . وبسبب اختلاف الاستخدام واتساعه فإنه يندر أن نجد اللفظ يستخدم منفردا ، ولكنه يحدد عادة بكلمة أخرى أو كلمات مثل الجهاز الدورى ، النظام الدينامى ، النسق المفتوح ، الجهاز العصبى .

٢ - مجموعة من الأفكار والمسلمات والمفاهيم والاتجاهات التفسيرية ذات بؤرة تتفاوت من حيث درجة وضوحها وتحديدها تفيد فى إيجاد بنية للبيانات والمعطيات فى مجال علمى مثل النظام الكوبر نيكى فى علم الفلك ، أو أى من المدارس العديدة فى علم النفس كالسلوكية أو البنائية .. إلخ أو مجموعة من الحقائق والمفاهيم التى تختار كإطار لتقديم خدمة أو برنامج .

٣ - يشير المصطلح إلى معنى أكثر تحديداً ، وهو ترتيب شىء لأشياء يتصل بعضها ببعض أو الات أو متيرات . وهذا الترتيب للعناصر يتم بحيث تعمل معا لأداء وظيفة .

٤ - يشير المصطلح إلى طريقة للتصنيف (جابر كفافى ، ١٩٩٥ ، ٣٨٥).

وبصفة عامة فإنه توجد صعوبة مباشرة فى تعريف أى نسق أو ملاحظته أو تحليله تتمثل فى أن المراقب لهذا النسق لا يستطيع أن يقرر من مجرد النظرة السريعة ، أى الأجزاء هى التى تتفاعل مع بعضها لكى تشكل الكل ، كما أن المراقب لا يستطيع أيضا أن يرى الطبيعة الدقيقة والمحددة لطبيعة الاتصال بين الأجزاء .

وعلى الرغم من أن حدود النسق الأسرى بالذات واضحة وجلية ، ويمكن التعرف على مكونات النسق ، وهم الأفراد المكونون للأسرة ، وهم أجزاء النسق الذى تتم ملاحظتهم بسهولة ويسر ، إلا أننا يمكن أن نقع فى الخطأ إذا ما افترضنا أننا نستطيع أن نقوم بدراسة كل فرد من أفراد الأسرة على حدة - شخصيته وميوله ورغباته واستعداداته- ثم نقوم بعد ذلك بفهم السلوك الكلى للأسرة بربط الشخصيات المختلفة الممثلة للنسق الأسرى من خلال جمع وإضافة هذه الشخصيات المفردة بعضها إلى بعض بطريقة الجمع الكمى . بل أنه يصبح من غير الممكن أن نستطيع فهم كل فرد من أفراد الأسرة بصورة فردية وعلى حدة لو قمنا بدراسته بعيدا عن السياق الكلى ، لأنه سيكون شيئا منفصلا معلقا فى فراغ .

إن الأنساق « ليست تجميعية » بمعنى « أن الكل أكبر من مجموع أجزائه » . وقد أدرك علماء الفيزياء هذه الحقيقة قبل أن يدركها علماء النفس والاجتماع بسنوات طويلة . وربما كان فى العلوم الفيزيقية ما يوضح هذه الحقيقة على نحو مادى ملموس بعكس ما هو فى العلوم الإنسانية والاجتماعية . فقد عرف علماء الكيمياء أنه عندما

تتحد مادتان فإنهما يكونان منتجا جديدا يختلف تماما عن أى من المادتين المكونتين له . كما عرف الفلكيون أيضا أن حركة كوكب ما كانت تعد جزءا من ترتيب كلى شامل لحركة الأجسام فى النظام الشمسى . وعرف علماء الأحياء أيضا أن بعض المبيدات الحشرية يمكن أن تغير فى التوازن البيئى فى المنطقة الجغرافية . وتقدم « سيبرج » تشبيها بسيطا يوضح ويصور هذه المقوله حين تقول أن كل صانع للحلوى يعرف جيدا أن الكعكة التى تخرج من الفرن لا تشبه على الإطلاق ، أى من مكوناتها مثل الدقيق والبيض واللبن من المواد التى وضعها فى الخلاط وكونت الكعكة . (Sieeburg , 1986, S) .

ثانيا : جذور التوجه النسقى فى علم النفس

إن التوجه النسقى فى علم النفس توجه قديم نسبيا وله جذوره باعتباره العلم الذى يدرس السلوك الذى يتأثر بانساق معينة . وفى مقدمة هذه الأنساق التى تؤثر فى السلوك تأتى الأسرة . وفكرة أن الأسرة تعد نسقا متكاملا فكرة متأصلة ولها أصولها فى الفلسفة وعلم الاجتماع .

وقد أعلن عالم الاجتماع أميل دوركيم Emile Durkheim قبل بداية هذا القرن أنه يمكن النظر إلى أى جماعة إنسانية بوصفها نسقا . ولكن هذه الفكرة لم تلق إلا تقبلا ضعيفا وبطيئا وخصوصا من علماء النفس الذين استمر ومعظمهم ينظرون إلى الكائن البشرى باعتباره الوحدة المناسبة للدراسة النفسية ، بل وقد ذهبوا إلى أكثر من ذلك حيث حاولوا دراسة وعلاج العقل الإنسانى بصورة جزئية ومستقلة عن الكائن البشرى بوصفه وحدة كلية ، ودراسته بعيدا عن البيئة التى يعيش فيها هذا الكائن .

ورغم ذلك فإن معظم المساهمات الأساسية والمهمة الخاصة بنظرية الأنساق وتطبيقاتها فى مجال دراسة الجماعات الإنسانية قدمها عالم النفس الألمانى الأصل كيرت ليفين Kurt Levin والذى هاجر إلى الولايات المتحدة الأمريكية عام ١٩٣٣ هربًا من الاضطهاد النازى . ويتمثل إسهام ليفين فى مجموعة المبادئ والمفاهيم التى صاغها مستوحيا فيها مبادئ العلوم الطبيعية والتى عرفت بنظرية المجال . وفى الفقرات التالية من هذا القسم سنشير إلى ثلاثة أصول أو مصادر أسهمت فى بلورة نظرية الأنساق العامة فى علم النفس وذلك قبل أن نتحدث عن النظرية نفسها . أما الأصول والمصادر

فيمكن تحديدها فى : نظرية المجال التى صاغها كيرت ليفين ، والفلسفة عبر التفاعلية التى قدمها بصفة أساسية إريك بيرن Eric Bern، ثم المذهب الكلى وتطبيقاته فى علم النفس .

أ - كيرت ليفين ونظرية المجال :

إن الأفكار الأساسية لنظرية المجال لم تنشأ أول مرة مع ليفين ولكنها كانت جزءا من حركة ظهرت فى ذلك الوقت فى كثير من العلوم ،وكانت بمعنى من المعانى ثورة ضد النظريات الميكانيكية والذرية التى كانت سائدة فى القرن التاسع عشر ، والتى كانت تذهب إلى أنه من الممكن تفسير الأحداث الطبيعية بوصفها « قوى بسيطة تعمل بين جزئيات غير قابلة للتغيير » ، وهكذا كان يدور الجدل حول ما إذا كان المرء يستطيع أن يتنبأ من خلال معرفته كل شىء عن الجزىء - حجمه وشكله وسرعة سيره واتجاه حركته وما إلى ذلك - بما سيحدث عندما يتقابل ذلك الجزئ مع الجزيئات الأخرى . وقد أثبتت هذه النظرة دقتها فى كثير من الحالات . ولكن التقدم التكنولوجى الذى حدث فى القرن العشرين أوجد بعض الحالات التى لم يتمكن العلماء من تفسيرها طبقا للتصور الجزيئى السابق . وقد ظهر فى بعض الدراسات براهين وشواهد تؤكد أن تلك القوى البسيطة نفسها قد تغيرت بواسطة مجالات القوى التى كانت توجد فيها أو مجالات القوى التى كانت تنتقل إليها . وبمعنى آخر فإن سلوك أى جزئ يعتمد بصورة جزئية فقط على خواصه وصفاته المميزة الخاصة به ؛ لأنه يتأثر أيضا بحالة المجال الذى يوجد فيه ، وهذا المجال يتأثر بالطبع بوجود جزيئات أخرى فيه . وعندما نستبدل بكلمة الجزئ كلمة الشخص فى الجملة السابقة يصبح من السهل علينا فهم فرض ليفين الذى يذهب إلى أن السلوك الإنسانى (B)Behavior يعتبر دالة (F) Function لحيز الحياة Life Space (LS)الذى يعد بدوره ناتجا عن التفاعل بين الشخص Person (P) وبيئته Environment (E) Æ. وقد عبر ليفين عن ذلك فى المعادلة الآتية :

$$B = F(LS) = F(P.E)$$

وعلى الرغم من أن الفرد تم تصويره فى نموذج ليفن باعتباره شكلاً محصوراً ومحاطاً من كل جانب بحدود شخصية دائمة ،فعادة ما يظهر هذا الشكل داخل حدود

أكبر تمثل حيز الحياة ، والتى تتضمن كل العوامل التى لها تأثير على سلوك الفرد فى أى لحظة معينة (Lewin , 1951) .

ولم يتعامل ليفين نفسه مع الأسرة باعتبارها جماعة ، ولكن تنظيره عن الجماعات بصفة عامة أثار شكوكا خطيرة حول وجهات النظر التى كانت قائمة وقتذاك حول الأسرة . ومما لا شك فيه أيضا أن افكار ليفين قد ساعدت على الثورة ضد ممارسات الطب النفسى فى ذلك الوقت أيضا ، حيث كان الأطباء النفسيون يصرون على أنه من الأفضل علاج المريض بعيدا عن أسرته . ولكن هذه النظرة تغيرت بعد ليفين ، حيث بدأ الكثير من الأطباء النفسيين ينظرون إلى الأسرة كلها بوصفها « مريضا » مقدمين بذلك الميدان الجديد للعلاج النفسى للأسرة.

وهناك صيغتان قدمها ليفين وقد اشتقهما من علم النفس الجشطلتى ، وتعدان صيغا أساسية لدراسة الأنساق الأسرية وهما :

- أن الأجزاء والعناصر لا توجد بصورة معزولة عن بعضها البعض ولكنها تنتظم فى صور كلية .

- أن السلوك يتسم بالطابع الدينامى أكثر مما يتسم بالطابع الميكانيكى .

وإذا كانت الصيغة الأولى هى إعادة صياغة لما قيل بالفعل عن الأنساق فإن الثانية تتطلب المزيد من التفسير . ويعتمد ذلك على أنه إذا كان الكل أكثر من مجموع أجزائه فإن سلوك كل جزء لا ينتج فقط من الخصائص الخاصة به وحده ، ولكنه ينتج أيضا من علاقة ذلك الجزء بالأجزاء الأخرى وبعلاقته بالكل . إن النظرة الميكانيكية فقط هى التى ترى أنه لو فككنا الكل إلى الأجزاء المكونة له ثم أعدنا تركيب تلك الاجزاء بنظام آخر مختلف ، فإن كل جزء سوف يظل يؤدى وظيفته الأصلية التى كان يؤديها من قبل ، لانه لا يستطيع أن يؤدى وظيفة أخرى .

وعلى الرغم من أن ذلك قد يكون صحيحا فى النسق الميكانيكى مثل محرك السيارة ، حيث تكون وظيفة خلاط البنزين مع الهواء (الكاربراتير) هى خلط الهواء مع البنزين فإن هذا الجزء لن يستطيع أداء أى وظيفة أخرى غير هذه الوظيفة مهما غيرنا من وضعه . أما بالنسبة للإنسان فالأمر يختلف تماما نظرا لقدرته على إدراك الموقف بطريقته الخاصة ونظرا للمعانى لديه من إدراك خاص للموقف ومن مدى واسع من

الامكانيات السلوكية التى لديه من مخزونه السلوكى ، ونظرا لقدرته على إنتاج سلوكيات جديد فهو يستطيع أن يختار من مخزونه السلوكى ما يناسب الموقف او ان ينتج سلوكا جديدا ويعتمد اختياره على علاقاته واتصالاته المتبادلة مع المكونات الاخرى للأشخاص الآخرين) فى وقت معين .ولقد كان لهذا المبدأ أو هذه الصياغة تأثير كبير فى إضعاف وجهة النظر الاستاتية cStati أو وجهة النظر القائمة على الثبات والعليه ذات الاتجاه الواحد One - Way Causality لصالح وجهة النظر التى ترى ان كل العوامل فى حال تفاعل وتغير مستمرين ، وهذا يعنى أيضا أنه لو تم إعادة ترتيب أجزاء النسق الإنسانى بحيث تغيرت علاقتها بعضها ببعض لترتب على ذلك أنها سوف تسلك سلوكا مختلفا عن السلوك التى كانت تسلكه من قبل؛ لأنها لم تعد هى « نفس » الأجزاء التى كانت قبل التغير . ويترتب على هذه الصياغة أيضا أن جمع الأجزاء معا أو إنقاص بعضها سوف يغير بالطبع من أداء كل جزء من الأجزاء الباقية لوظيفته .

ويلاحظ أيضا أن الإسهام الدينامى الذى تمثله نظرية ليفين فى المجال قد قدمت تفسيرا مقنعا لشىء أو لظاهره نعرفها جميعا من خلال خبراتنا الخاصة ، وهى أن سلوك « نفس » الشخص فى المواقف والظروف المختلفة يتغير ويتباين ؛ وذلك لأن السلوك لابد وأن يتغير - رغم أنه لشخص واحد - بتغير الظروف والملابسات المحيطة والمتضمنة فى الموقف .

ب - الفلسفة عبر التفاعلية (التعاملية) :

ويوجد اتجاه موازٍ آخر لمنهج ليفين العلمى لدراسة الجماعات الإنسانية ، وهو نمو المفهوم الفلسفى المعروف بالفلسفة أو المنظور التفاعلى أو التفاعلية Transac-tionalism وهو بمثابة إعادة صياغة لمبدأ الجدل الذى وضعه الفيلسوف الألمانى هيجل Hegel فى القرن التاسع عشر .

وعلى الرغم من أنه يمكن تطبيق التفاعلية على كل انواع الموضوعات ، إلا أنها تكون أكثر ملاءمة لدراسة الاتصال الإنسانى ، الذى وصفه « بيرد وستل » Bi-rdwhistell بقوله «إنه لا ينبغى أن يفهم الاتصال الإنسانى بوصفه نموذجا بسيطا للفعل ورد الفعل ، وإنما كنسق يجب فهمه على المستوى التعاملى Brid-whistell , 1950 , 104 ، فالشخص العادى يميل إلى التفكير فى سلوكه وسلوك أسرته فى ضوء العلاقة البسيطة « السبب - النتيجة » أو « المثير - الاستجابة » . وينظر عادة

إلى عضو الأسرة باعتباره فردا إيجابيا مقابل اعتبار عضو آخر فردا سلبيا ، أو أن ينظر إلى عضو باعتباره الفرد الذى يقوم بالفعل وإلى العضو الآخر باعتباره الفرد الذى يقوم برد الفعل . وهذا النوع من التفكير هو الشائع والمقبول وهو أكثر بساطة ووضوحًا مما يسود فى جلسات الإرشاد الأسرى والإرشاد الزواجى . وكثيراً ما يتفق أعضاء الأسرة الذين أتوا للإرشاد أو العلاج الأسرى وقت الجلسات فى محاولات مستمرة ليلقى كل منهم اللوم على الآخر ، ولمحاولة كسب المرشد أو المعالج فى صفه واقتناعه بأن الآخر هو « السبب » الذى أتى بالأسرة إلى العلاج .

وفى مثل هذا التفكير يمكن أن نقع فى سقطتين أو مأزقين على الأقل :

الأول : أن دراسة الاتصال الذى يحدث بين أى جزءين مختارين من أجزاء النسق غالبا ما تكون مضللة ؛ لأنها تتجاهل الحاله الكلية للنسق ؛ لأن أى تبادل اتصالى بين شخصين يمكن أن يكون مجرد جزء أو شظية من صورة أكبر لا يمكن اكتشافها بالاقتصار على ملاحظة الشخصين المتفاعلين فقط .

الثانى : عندما نلاحظ تتابع معين للأفعال فإن معنى التتابع أو مغزاه يكون موضع التساؤل بهدف الفهم . فكما يذكر «مورتون دويتش» (Morton Deutsch) إذ رأينا الشخص (أ) يجرى ووراءه يجرى الشخص (ب) فيمكن أن يقال أن الشخص (أ) يقود الشخص (ب)، أو أن يقال أن الشخص (ب) يطارد الشخص(أ) Deutsch 1954,187 .

وهناك نوع مشابهه من عدم اليقين بالنسبة للنسق المتتابع يحدث فى كثير من صور التبادل اللفظى ويسمى مشكلة « وضع علامات الترقيم » (Punctuation) ، حيث يختلف تفسير وإدراك ما يعتبر مثيرا أو ما يعتبر استجابة حسب كل طرف مشارك فى الموقف . وقد أشار إلى هذا النوع من البلبلة أو عدم التيقن كل من « واتزلافيك» (Watzlawick) و « بيفن » (Beavin†) و « جاكسون » (Jackson) (1967)وهو النوع الذى يقف وراء العديد من المشاجرات والمشاحنات الأسرية المستمرة ، حيث نجد أن كلا من الزوج والزوجة يعمد إلى إلقاء اللوم على الآخر ، ويدعى أن استجابته وسلوكه لم يكن إلا رد فعل لسلوك غير مناسب صدر عن الطرف الآخر ، أما التصور التعاملى فإنه ينظر إلى هذه المسألة على أساس أن كلا من الزوج والزوجة لم يمثل أى منهما فى هذا التتابع لا المثير الذى أثار الطرف الآخر ، ولا الاستجابة لهذا المثير ،

ولكن كل منهما كان طرفا مساويا فى ذلك التفاعل الذى نتج عنه هذا التتابع المستمر وغير المتقطع للسلوكيات غير المرغوبة .

ويثير المبدأ التعاملى عددا من التساؤلات والشكوك حول العلاقات البسيطة مثل علاقة « السبب - النتيجة » التى غالبا ما نستخدمها لوصف أى تفاعل بين اثنين من أفراد الأسرة يتم تقييم تفاعلهما فى المواقف الأسرية مثل فشل الابن فى الدراسة لعدم استذكاره لدروسه ، واتجاه الابن إلى العصابية من جراء خوف الأم الزائد عليه ، أو حدوث الطلاق لمعاملة الزوج السيئة لزوجته .

فحسب المبدأ التعاملى يكون من الخطأ التفكير الذى يرى أن العلاقة بين شيئين يمكن أن توجد بدون أن نأخذ فى اعتبارنا كيفية تفاعل العناصر الأخرى فى النسق بعضها مع بعض ، لأن عوامل مثل عدم الاستذكار ، وخوف الأم الزائد ومعاملة الزوج تصبح أمورا لا معنى لها إن لم يتم النظر إليها باعتبارها جزءا من مجال كلى كامل . وعند تطبيق هذا المبدأ على الأسرة فإنه يكون من الأنسب أن نهمل البحث فى العلاقة السببية بين فرد وفرد (من السبب ؟ - الزوج أم الزوجة .. الابن أم الأم) وأن نتجه إلى النظر لمثل هذه المعطيات المعقدة - وأن بدت غير ذلك - من زاوية التشكيلات العلاقية ونظم قواعد الأسرة وأنماط التفاعل التى تشمل الأسرة كلها .

ج - المذهب الكلى :

وهذا جذر آخر للتفكير النسقى فى علم النفس . والمذهب الكلى باختصار هو المذهب الذى يرى أن خصائص الجزء تعود إلى خصائص الكل الذى ينتمى إليه الجزء . وقد كان لهذا المبدأ تطبيقاته فى مجال الطب بأن يتناول الأطباء المريض ككل . ولا يتعاملون مع أعراض معينة أو مع شكوى معينة خاصة بأحد أعضاء الجسم ، لأن فهم الطب وإن كان مرتبطا بعضو معين فلن يتم إلا فى ضوء فهم الكل وهو الكائن الحى أو المريض . والمذهب الكلى لا يكتفى بأن ينظر إلى الكائن الحى بوصفه كلا متكاملا فقط ولكنه ينظر إليه بوصفه مكونا متفاعلا مع بيئته . إن النفاذ المتبادل أو التداخل فى التأثير بين الكائن الحى وبيئته أو ثقافته معقد جدا ومندمج على نحو يصعب الفصل بينهما ، بل إن أى محاولة من هذا القبيل تعرض الوحدة الطبيعية التى تميز الكل الواحد إلى التدمير أو التشويه على الأقل .

وكما أوضح « إرنست بيرجس » (Ernest Burgess) فإن النظرة الكلية إلى الأسرة ليست جديدة فى علم النفس ؛ فمن العشرينات وصفت الأسرة باعتبارها «وحدة من الشخصيات المتفاعلة (Burgess , 1968,28) ولكن هذه النظرة لم تجد ما تستحق من الاهتمام حتى منتصف الخمسينات ، وقد ظهر هذا جيدا فى ممارسات العلاج النفسى حيث كان معظم الأطباء النفسيين قبل ذلك يعالجون مرضاهم بعيدا عن أسرهم، بل إن الاتصال بالأسرة كان يمثل ضعفا أو دليلا على عدم تمكن المعالج . وحتى عندما بدأ المعالجون يكتشفون من خلال الممارسة أن الأم مثلا أسهمت فى نمو المرض النفسى لابنها فإنه كان ينظر إلى الابن بوصفه ضحية بريئة لأم سيئة مما يعكس عدم فهم المنظور النسقى والفشل فى رؤية المرض وتشخيصه من الزاوية النسقية .

ولكن سرعان ما تم التوصل إلى المزيد من الاكتشافات - فى سياق الممارسة - والتى أوضحت مثلا أن الأب غير الكفء يسهم أيضا فى اضطراب ابنه ، كما أن العلاقات بين الأخوة ، أيضا عامل باثولوجى مسهم فى نمو مرض عضو الأسرة المريض، بل إنه اتضح لهم أن المريض نفسه ليس سلبيا كما كان يظن ؛ وأنه يسهم أيضا فى نشأ المرض ونموه « باتجاهه » برغبته التى قد تكون لاشعورية نحو المرض .

وهكذا تم التوصل إلى الإدراك الكامل بأن المرض النفسى لأحد أفراد الأسرة يعد مجرد عرض لتشابك وتداخل عوامل مرضية فى الأسرة نفسها . وقد تم التوصل إلى هذا الإدراك بالتدريج وخلال مقاومات وتشككات من بعض المحافظين والمتشبثين بالمناهج القديمة . وعلى هذا يفترض أن الأسرة « الصحية » هى التى لا يشكو أى من أعضائها اضطرابا أو مرضا وتؤدى وظائفها بشكل عادى وطبيعى . ومن المفارقة أن معلوماتنا عن ديناميات الأسرة « الصحية » أقل مما لدينا عن الأسرة « المنحرفة » أو « المضطربة » والتى يكون أحد أعضائها منحرفا أو مضطربا . وربما كان ذلك بسبب الدراسات والبحوث التى انصبت على الأسرة المضطربة لمحاولة فهما ولمساعدة العضو المريض فيها ، وهذا الدافع لم يكن يتوافر فى حال الأسرة « الصحيحة » .

ثالثا : نظرية الأنساق العامة

وتمثل نظرية الأنساق العامة (General System Theory , GST) وجهة النظر الأساسية والحديثة فى النظر إلى الأسرة وفى دراستها . ونظرية الأنساق لها جذورها أيضا فى علم النفس الجشطلتى الذى يتبنى مفهوم الصيغة الكلية (gestalt) . ومن أعلام علم النفس الجشطلتى ماكس فيرتيمر Max Wertheimer وفولفجانج كولر Wolfgang Kohler . وكيرت كوفكا Kurt Koffka وهم الذين رسخوا المبدأ الأساسى عند الجشطلت وهو أن تحليل الأجزاء لا يمكن أن يقدم فهما جيدا للأداء الوظيفى للكل. وهو المبدأ الذى قامت عليه نظرية الأنساق . وقد تناول فون برتالانفى نظرية الأنساق على النحو الذى جعلها تشمل مجالات عديدة مختلفة كالعلوم الاجتماعية والعلوم السلوكية . وهذا شىء مفهوم من حيث إن النظرية تتناول البحث فى المبادئ الشاملة التى يتم تطبيقها فى كل الأنساق بصرف النظر عن مضمون ومحتوى النسق ، بحيث يمكن تطبيق قوانين الفيزياء والأحياء (البيولوجى) فى علم النفس والاقتصاد . وبذلك فإن «برتالانفى» كان يعتقد أن نظرية الأنساق نظرية فعالة بدرجات مختلفة من النجاح والدقة والإتقان والضبط فى المجالات المختلفة (Bertalanffy 1968 , Xii) .

ولأن النظرية تطبق فى مجالات مختلفة ومتباينة ، وما يترتب على ذلك من ملاحظة الباحثين لأوجه التماثل البنائية والتكوينية (التشابه فى الشكل والبناء) بين الظواهر التى تنتسب إلى مجالات مختلفة ، يحذرنا « برتالانفى » من هذه التشابهات السطحية والتى يمكن أن تجعلنا نغفل الفروق والاختلافات بين الظواهر . فقد ننخدع بالتشابهات Similarities وننسى أن هناك لاتشابهات Bertalanffy , 1968,35 Dissimilarities .

والآن سنعرض لبعض المبادئ النسقية العامة - مع وضع تحذير برتالانفى فى الاعتبار - وهى المبادئ التى يبدو أنها وثيقة الصلة بالأسرة بصفة خاصة كما وصفتها «إيفلين سيبرج» (Evelyn Sieburg , 1985 , 12-19) .

- مبدأ الوحدة الأساسية :

ويقرر هذا المبدأ أن الكل الشامل عبارة عن نسق واحد هائل Massive يمكن النظر إليه باعتباره مكونا من أى عدد من الأنساق الفرعية المحددة . ومع ذلك فإنه يكون من المناسب أن ننظر إلى أى نسق فرعى باعتباره نسقا فى حد ذاته ، ويجب أن نضع فى اعتبارنا « بيئة » النسق ، أو النسق الأكبر التالى (أو المستوعب) للنسق الفرعى .

- تغير النسق :

سبق أن ذكرنا أن النسق ليس تجميعا للمكونات المستقلة . هكذا فإن شخصية وخصائص أى نسق لا يمكن معرفتها ببساطة من خلال معرفة طبيعة أجزائه المختلفة . ومع ذلك فإن شخصية وخصائص أى نسق تتأثر بكل جزء من أجزائه ؛ لأنه عندما تتغير العلاقة بين أجزائه فإنه يتم إعادة تشكيل النسق بأكمله . والنسق لا يتم تكوينه بالتدريج ، ولكنه يوجد مباشرة ثم يكون عرضة للتغير ، والتغير فى النسق نوعان . تغير يصيب المكونات الداخلية وعلاقتها ، وهو ما يسمى بتغير المرتبة الأولى First Order Change . والتغير الذى يحدث نتيجة دخول معلومات جديدة إلى النسق من خارج حدود النسق ، وهو ما يسمى بتغير المرتبة الثانية Second Order Change .

- القابلية للحياة والنمو :

إن أى نظام صحى يعمل بطريقة تساعده على المحافظة على نفسه والبقاء حيا (أى لديه قابلية للحياة والنمو Visible) وفى البيولوجى تعنى القابلية للحياة والنمو قدرة العضو على البقاء حيا والنمو بواسطة إنتاج خلايا جديدة لكى تحل محل الخلايا المفقودة. وبطريقة مشابهة فإن النسق الاجتماعى يظل حيا فقط ما دام مستمر فى التغير وإصلاح نفسه وخلق حالات جديدة متعاقبة ومتوازنة ، بينما يظل محافظا فى نفس الوقت على الروابط التى تجعله نسقا متميزا ولا يذوب فى غيره من الأنساق .

ويحقق النسق هذا النمو - وفى استقلال وتميز- من خلال «قواعد» مختلفة تتيح له أن يظل منفتحا على مدخلات بيئية جديدة ، وأن ينظم نفسه ، وأن يتوافق بصورة تجميعية مع الضغوط التى يصطدم بها . ومع ذلك فإن النسق الذى يفقد القابلية للحياة والنمو لا يموت ، ولكنه يتحطم ويتجه نحو العشوائية فى سلوكه ، حتى ليصعب النظر إليه باعتباره نسقا . وهذه العشوائية هى صورة من صور الخلل فى الطاقة يمكن تسميتها الطاقة المعطلة entrophy . وزيادة هذه الطاقة المعطلة تعنى تناقصا فى النظام وفى بناء وتكوين النسق، وبذا يتحرك النسق ذو الطاقة المعطلة نحو المزيد من التخبط والعشوائية.

- الأنساق المنفتحة والأنساق المنغلقة :

من المفيد أن نميز بين الأنساق المنفتحة Open Systems والأنساق المنغلقة Closed Systems ؛ لأنها من المصطلحات الهامة فى المجال وتتكرر كثيرا فى الحديث عن ديناميات الأنساق الأسرية ، وأى نسق يتعرض لتتابع حالات معينة يكون فى حال

تحول، وعندما لا تؤدى هذه التحولات إلى إنتاج مادة جديدة ، وإنما تؤدى فقط إلى إعادة ترتيب أجزاء النسق ، فإن هذا النسق يسمى نسقا منغلقا ؛ ولذا فإن التغير الذى يحدث فى هذا النسق هو من نوع تغير الدرجة الأولى .

وهذا بعكس النسق المنفتح الذى يحافظ على نفسه من خلال عملية مستمرة ودائمة من المدخلات والمخرجات . إن النسق المنغلق مبتور أو مقطوع الصلة بما حوله ، ويسعى فى بحثه إلى الحفاظ على حالة التوازن داخل حدوده ، أما النسق المنفتح فنظرا لكونه فى حال تبادل دائم للمعلومات والطاقة مع البيئة الخارجية فإنه لا يكون أبدا فى حال فقدان للتوازن ، ويحقق دائما التكيف والتوافق مع المدخلات الدائمة ، وبالتالى فهو يتجدد وينمو .

إن الآلة نسق منغلق لكن الكائن الحى يفترض أنه نسق منفتح ، ولا يمكن للنسق أن يظل حيا ناميا لمدة طويلة بدون الاتصال مع بيئته وكل نسق لديه ميل إلى الضعف والانهيار مع مرور الزمن ؛ نظرا لأن تدفق الطاقة يصبح أقل بنائية وأقل انتظاما . ويحدث هذا الميل الذى يتضمن عدم الانتظام والعشوائية - مما يسبب ظاهرة الطاقة المهدرة أو المعطلة entrophy - بصورة أسرع فى النسق الذى لا يكون لديه إلا عدد قليل من المدخلات التى تأتى إليه من الحدود الخارجية . وكما قلنا فإنه بينما ينزع النسق المنغلق ويستسلم للضعف والانهيار فإن النسق المنفتح يقاوم عناصر التهدم ؛ لأنه يتفاعل مع البيئة فيمنحها الطاقة كما يستمدها منها فى نفس الوقت . ومن المهم أيضا إدراك أن النسق المنفتح لا يعنى فقط أن هذا النسق له تغيراته المتبادلة مع البيئة ، ولكن يعنى أن هذه التغيرات المتبادلة تعد عاملا جوهريا يكمن وراء قدرة النسق على الحياة والنمو .

حدود النسق :

كل نسق له حدود ينحصر داخلها . وتضم هذه الحدود كل العلاقات والأحداث المتضمنة فى النسق والتى تختلف عن تلك العلاقات والأحداث القائمة خارج حدوده أو المتضمنة فى حدود نسق آخر . ويمكن أن يقوم الحد أيضا بوظيفة المرشح من حيث إنه يسمح أو يمنع الطاقة من دخول أو مغادرة النسق . كما توجد الحدود أيضا بين الأنساق الفرعية ،ويمكن وصف هذه الحدود على متصل يبدأ من النفاذية العالية إلى اللانفاذية ، وذلك حسب درجة انفصال الأجزاء . ولذا قد تكون الحدود سميكة وقد ترق إلى درجة أقرب إلى التميع حتى تبدو المكونات المرتبطة بالأجزاء أو الأنساق الفرعية وكأنها مختلطة أو مندمجة معا .

- التوازن الحيوى :

كما أن لكل نسق خاصية الحفاظ على ذاته ، فإنه له خاصية أن يبقى نفسه فى حال توازن . وتسمى هذه الخاصية بخاصية التوازن الحيوى Homeostatis وهى الحفاظ على سلوك النسق وضبطه داخل نطاق الحدود المطلوبة . وعندما يحدث أى شىء خارج نطاق المدى المقبول للنسق ، فإن النسق يصبح فى حال عدم اتزان ويظهر التوتر . وعندما يحدث عدم الاتزان أو التوتر فإن ميكانزمات وفنيات التوازن الحيوى يتم استثارتها لكى تستعيد توازنه من جديد . إن النسق يفحص نفسه بدقة ويستطيع أن يقرر أو يحدد العامل الذى سبب حالة عدم التوازن ، ثم يكيف نفسه فى حدود المدى المرغوب فيه من خلال العودة إلى حالة التوتر المنخفض أو المعتاد .

- التغذية المرتدة :

والتغذية المرتدة Feedback وسيلة يحتفظ من خلالها النسق بحالة مستقرة . وعندما يخرج النسق عن توازنه لأى سبب من الأسباب تزيد التغذية المرتدة الإيجابية من انحرافها ، بينما تعمل التغذية المرتدة السالبة بوصفها عملية مثيرة أو منشطة للخطأ error - activating Process وهى مصممة لمساعدة النسق على استعادة حالة الثبات . وهكذا فإن التغذية المرتدة السالبة تصحح حالة عدم التوازن وتعيد النسق إلى حالة الاتزان . ولهذا فإن المعلومات الخاصة بالخلل والاضطراب الوظيفى للنسق (فى شكل تغذية مرتدة سالبة) مسألة أساسية لحدوث التغير(٥) .

وهكذا فإن التغذية المرتدة تقوم بوظيفتى الفحص والتنظيم . ويتم تشبيهها عادة بالأداة الآلية التى تنظم درجة الحرارة (الثرموستات Theromostat) وهناك نقطة معينة تبدأ عندها ميكانزمات التغذية المرتدة السالبة فى العمل ، وهذا يعنى أن النسق يقوم بفعل التصحيح الذاتى . وإن لم يحدث هذا فإن ميكانزم التغذية المرتدة قد تعطل ، ويترتب على ذلك أن يصبح النسق مختلا وغير منتظم . وتتباين الأنساق من حيث المدى المقبول للسلوك ، فقد يكون المدى ضيقا ، وقد يكون واسعا يتضمن بدائل عديدة ، وهناك بعض الأنساق يكون لها مدى واسع من السلوك نظرا لفقدها ضوابط التوازن الحيوى . وهذه الأنساق الأخيرة تملك « قواعد تنظيمية » أقل ولكنها أيضا أكثر ميلا نحو الاضطراب .

---

(٥) يلاحظ أن مصطلح إيجابي Positive وسالب negative كما تستخدم في نظرية الأنساق لا يجب أن تفسر طبقا لمعناها الشائع أو بوصفها مكافأة أو عقاب ، فالتغذية المرتدة السالبة فى هذه النظرية تشير إلى القوة الحافزة لحدوث التغير ، بينما لا تعني التغذية المرتدة الإيجابية ذلك .

- المحصلة الواحدة :

إن النسق المنفتح يكون أكثر مرونة من النسق المنغلق فيما يتعلق بالطريقة التى يتعامل بها مع المدخلات الآتية إليه . وفى الأنساق الشبيهة بالميكانيكية تكون الحركة الخاصة بدخول المدخلات وخروج المخرجات حركة تتبع طريقا محددا ، حيث لا ينتج المدخل الواحد سوى ناتجا واحدا فقط . وفى النسق الأقل ميكانيكية فإن الناتج النهائى يمكن تحقيقه وإنجازه من خلال مجموعة متنوعة من الطرق المختلفة . ولو أغلق أحد الطرق ، أو فشل أحد المكونات فى أداء وظيفته فإن هناك طرقا بديلة ومكونات أخرى متاحة . وبمعنى آخر يمكن الوصول إلى نفس الهدف بطرق مختلفة . إن هذا هو مبدأ المحصلة الواحدة Equifinality، حيث يمكن أن تؤدى عمليات كثيرة مختلفة إلى نفس النتائج أو نفس المحصلة . ويعد نظام التليفون مثلا للنسق غير المرن ذو المحصلة المنخفضة أو المحدودة ، بينما يعتبر العقل الإنسانى مثلا على النسق ذو المحصلة العالية والمتنوعة . وتملك الأسرة العادية قدرا لا بأس به من خاصية المحصلة الواحدة ، ولكن فى الأنساق الأسرية غير المرنة تكون هذه الخاصية محدودة ومقيدة .

- الانفصالية البينية :

تحت ظروف الضغوط الخارجية قد يلجأ النسق إلى تركيز وتكثيف الجهد والضغط على نقطة واحدة مختارة يحسبها قادرة على التحمل ، وقد يلجأ النسق إلى بديل آخر وهو توزيع الضغوط على النسق بأكمله ، ومن الواضح أنه فى الحال الأخيرة يستطيع النسق أن يتحمل درجات أكبر من الضغوط ، لأنه سيجند كل القوى ويحشدها لكى تقوم بدورها وتشارك فى التحمل .

ويجب أن يكون النسق جيد التركيب والبناء لكى يمكن أن يوجد اتصال بينى داخلى جيد . وبدون البناء والتركيب الكفء فإن عدم الانتظام والفوضى ستحدث مما ينتهى أخيرا إلى حدوث تشوش بالكامل فى النسق . ولكن مع توافر البناء والتكوين تستطيع الأجزاء الداخلية أن تتصل بعضها ببعض اتصالا تبادليا منسجما ومتوافقا مما يسمح لكل المكونات فى النسق بأن تقوم بوظائفها على نحو صحيح ، ومما ينعكس بالتالى على أداء النسق ككل .

* * *

القسم الثانى : النسق الأسرى

أولا : مقدمة فى إمكانيات الأسرة

أ - الأسرة كشبكة علاقات إنسانية اجتماعية :

الأسرة هى وحدة المجتمع الأول ، وهى الواسطة أو حلقة الوصل بين الفرد والمجتمع ، أو الواسطة بين الثقافة والشخصية . والأسرة هى الوسط الإنسانى « الأول » الذى ينشأ فيه الطفل ، ويكتسب فى نطاقها أول أساليه السلوكية التى تمكنه من إشباع حاجاته وتحقيق إمكانياته والتوافق مع المجتمع .

ولسنا فى حاجة إلى الحديث أو الإشارة إلى أهمية الأسرة البالغة فى تشكيل شخصية الفرد ، وقد أضحت هذه الأهمية أحد المسلمات فى علم النفس على قلتها . فالكائن الإنسانى يمر بمرحلة الحضانة البيولوجية فى رحم الأم ، وعندما تنتهى هذه المرحلة بالميلاد فإنها تسلمه إلى مرحلة الحضانة الاجتماعية ، وهى تتم بالدرجة الأولى فى الأسرة . ثم فى بقية المؤسسات الاجتماعية ، التى تعمل على تحويل إمكاناته واستعداداته السلوكية إلى سلوك فعلى ، أى على تنشئته اجتماعيا كفرد فى مجتمع ومواطن فى دولة .

وإذا كان من المتعارف عليه عند الحديث عن الأسرة أن نقصر الحديث على جوانب التأثير البيئى ، فإن تأثير الأسرة فى الحقيقة يمتد إلى ما قبل ذلك ، أى إلى عملية الاختيار الزواجى ، وعلى ذلك فإن ما يرثه الطفل من والديه ومن أصلاب والديه يدخل بصورة ما فى نطاق التأثير الأسرى . وصدق رسول الله ﷺ حين يقول : «تخيروا لنطفكم فإن العرق دساس» ونكرر مرة أخرى أنه إذا كانت تنشئة الطفل اجتماعيا تحدث من خلال مؤسسات ووكالات اجتماعية وثقافية متعددة فإن الأسرة تقف فى مقدمة هذه المؤسسات وتحتجز لنفسها الإسهام الأكبر فى عملية التنشئة الاجتماعية .

وتمثل الأسرة شبكة من العلاقات الإنسانية الاجتماعية . وينشأ الطفل فى هذه الشبكة ويعتمد عليها اعتمادا كاملا فى سنوات حياته الباكرة ، وهى السنوات ذات الأهمية البالغة فى تشكيل شخصيته ، فالإنسان يعتمد على الكبار المحيطين به فترة أطول فى إشباع حاجاته بالقياس إلى بقية هذه الكائنات . ويعتمد الوليد فى بداية حياته على الأم اعتمادا كاملا فى توفير الطعام والدفء والراحة والنظافة وسائر ألوان الرعاية ، مما يجعل الأم - أو من يقوم مقامها - شخصا مميزا وذو مكانة خاصة لديه . ثم ينتقل فى

اعتماده وتفاعله من الأم إلى الآخرين من بقية أفراد الأسرة من والد وأخوه ، ثم تتسع دائرة معارفه ومجال احتكاكه إلى الرفاق من الجيرة وزملاء المدرسة ، ثم إلى المجتمع الكبير بمؤسساته المختلفة . ودخول مؤسسات أخرى إلى مجال التأثير على الفرد بجانب الأسرة لا ينهى تأثير الأسرة أو يوقف وظائفها فى التنشئة ، بل يظل للأسرة وضع خاص باعتبارها البيئة التى تضع اللبنات الأولى فى شخصية الفرد .

وتتضح قيمة الأسرة فى كونها توفر للوليد بيئة إنسانية اجتماعية، فالأطفال الذين حرموا من الرعاية الوالدية داخل أسرهم الطبيعية من نشئوا فى مؤسسات ودور رعاية أيا كان نوعها ومستواها تضررت لديهم معظم جوانب النمو فى شخصياتهم ابتداء من النمو الجسمى وانتهاء بالنمو الخلقى والاجتماعى مرورا بالنمو فى اللغوى والمعرفى والانفعالى، أما الأطفال الذين حرموا من الرعاية الإنسانية بالكامل والذين عاشوا من بداية حياتهم - لظرف أو لآخر- فى بيئات لا إنسانية ، وهم من يطلق عليهم حالات الأطفال أو الرجال المتوحشون Feralmen فقد عاشوا معيشة أقرب إلى معيشة الحيوان ، وظلت إمكانياتهم الإنسانية كامنة واستعداداتهم معطلة ، وكان أداؤهم ومختلف أساليب توافقهم دون مستوى السلوك الإنسانى ، ومطابقا لسلوك الحيوانات التى عاشوا بينها أو قريبين منها . وهذا يعنى أن حرمان الوليد الإنسانى من المعيشة فى وسط إنسانى مرب يحرمه من معظم الصفات والملامح التى تميز حياة بنى البشر، وعلى ذلك نستطيع أن نقول أن المعيشة فى الأسرة هى التى تسمح بأقصى درجات النمو لإمكانيات الفرد واستعداداته .

ب - الأسرة كجماعة أولية :

وتحتل الأسرة هذه المكانة المميزة بين مؤسسات التنشئة الاجتماعية ووكالاتها باعتبارها نموذجا « للجماعة الأولية "Primary group" ، بل إنها « الجماعة الأولية » الأولى . ونقصد بالجماعة الأولية المعنى الذى قصده « تشارل كولى » C. Cooley بأنها الجماعة صغيرة الحجم ، والتى تتميز بعلاقات وثيقة ومباشرة وعميقة بين أفرادها . وهى أولية أيضا بمعنى أسبقية التأثير ، حيث إن الأسرة هى البيئة الأولى التى تقدم الرعاية وينعكس تأثيرها عليه منفردة فى المراحل الحاسمة والأولية من نموه ولذا يكون تأثيرها دامغا وشاملا يتضمن كل جوانب شخصية الطفل بعكس الجماعات الثانوية الذى يكون تأثيرها منصبا على جوانب معينة من الشخصية، إضافة إلى أن تأثيرها يأتى فى وقت لاحق، حيث يكون الطفل قد كون اتجاهات ومفاهيم معينة ونمى مهارات خاصة به فى أحضان الأسرة ؛ ولذا يكون تأثير الجماعات الثانوية أقل عمقا من تأثير الجماعات

الأولية . وهناك خاصية أخرى للجماعات الأولية وهى أن التعلم الذى يحدث فى أحضانها يحكم أنواع التعلم التالية التى تحدث فى ظل الجماعات الثانوية ، فما يتعلمه الطفل فى الأسرة من اتجاهات وقيم ومفاهيم يحكم نوعية وطريقة تعرضه لتأثيرات الجماعات والمؤسسات الأخرى ، وبالتالى ما يمكن أن يتعلمه منها أو يتأثر به من جراء احتكاكه وتفاعله معها . وإذا كانت الجماعات الأولية تضم الأسرة وجماعة الجوار وبعض جماعات المجتمع المحلى وجماعة اللعب ، يتضح لنا أن الأسرة كجماعة أولية تتميز أيضا بحجم تأثيرها الكبير والعميق قياسا إلى تأثير الجماعات الأولية الأخرى .

والأسرة بناء أو بنية Structure . ونقصد بالبنية هنا شبكة العلاقات الإنسانية والاجتماعية التى تربط بين أفراد الأسرة . وعلى رأس هذه العلاقات طبيعة العلاقة بين الوالدين ، ثم طبيعة علاقة كل منهما بكل فرد من أفراد الأسرة الآخرين ، وتوقعاته منه وفهمه لالتزاماته نحوه . ويدخل فى بنية الأسرة أيضا نوعية الصراعات التى قد تنشأ بين كل فرد وآخر واحتمال اتخاذ الفرد من الآخرين وسائل لتحقيق غاياته ، أو أن يتخذه ككبش فداء . (كفافى ، ٩٩٧ ، ٢١٦) وهناك مصطلح المنظومة الأسرية Family Constellation ويشير إلى عدد أعضاء الأسرة وخصائصهم وأعمارهم والعلاقات بينهم (جابر ، كفافى ، ١٩٩٠ ، ١٢٥٦)(*) .

ج - تغيرات فى بناء الأسرة ووظائفها :

وقد تعرضت الأسرة أخيرا لبعض التطورات التى غيرت من حجمها ومن بعض وظائفها ، ومن هذه التطورات أنها لم تعد فى كثير من المجتمعات تلك « الأسرة الممتدة» Extented Family التى تشمل الأعمام والعمات والجد مع بعض الأقارب الآخرين بجانب الوالدين . ومما لا شك فيه أن وجود كبار آخرين غير الوالدين فى الأسرة له تأثيره على الطفل ؛ لأنهم مصادر إضافية للعطف والرعاية ، وبالتالى مصادر للأمن ، كما أنهم مصادر للضبط والتوجيه أيضا .

(*) من المصطلحات التى تصف الأسرة أيضا : نمط الأسرة Family Pattern ويشير إلى « نوعية العلاقات بين الوالدين ، وبين الوالدين والأطفال التى تميز أسرة معينة . وأنماط الأسرة تتفاوت تفاوتا كبيرا فى الأسلوب الانفعالى ، وفى اتجاهات الأعضاء بعضهم نحو البعض الآخر ، فبعض الأسر تتسم بالدفء الانفعالى ، والبعض الآخر يتسم بالبرود ، ونجد أن أعضاء بعض الأسر يتباعدون ، وأعضاء أسر أخرى ذوى علاقات حميمة ، وبعض الأسر منفتحة للأصدقاء والأقارب ، بينما نجد أسر أخرى مغلقة . وفى بعض الأسر نجد طفلا أو أكثر محبوبين ويجدون تقبلا ، وفى أسر أخرى نجد طفلا أو آخر معرضين للنبذ» (جابر ، كفافى ، ١٩٩٠ ، ١٢٥٨) .

كذلك نجد أن اتجاهات الوالدين فى الأسرة الحديثة تميل إلى إنجاب عدد أقل من الأبناء ، لاعتقادهما أن ذلك يمكنهما من توفير فرص أفضل فى تربية وتعليم أطفالهما . كذلك من التطورات - الأقدم - التى تعرضت لها الأسرة وأثرت فى وظائفها خروج المرأة إلى العمل خارج الأسرة ، وقد ترتب على هذا التطور ظهور مؤسسات تقوم ببعض ما كانت تقوم به الأسرة من أعباء تربوية مثل دور الحضانة . ولكن على الرغم من هذه التطورات التى غيرت من وظائف الأسرة ، وظهور مؤسسات أخرى تربوية مساعدة للأسرة ، وهو ما يرمى إليه العلماء بحديثهم عن تقلص وظائف الأسرة ، فإنه مازال لها مكانتها المميز بالنسبة لتكوين شخصية الطفل .

د - الترتيب الولادى للطفل :

ومن إمكانيات الأسرة أيضا ترتيب الطفل بين إخوته وأخواته ، وهو متغير لم يكن يتنبه إليه أحد إلى وقت قريب ، وقد كان فضل التنبيه إليه يعود إلى العالم «الفريد أدلر Alfred Adler » مؤسس علم النفس الفردى (Adler , 1956 , 376-383) الذى أوضح أن « الترتيب الولادى » (birth order) متغير أسرى هام يؤثر على بناء شخصية الفرد .

وقد يكون شائعا بين الناس أن الأطفال فى الأسرة الواحدة يعيشون فى بيئة واحدة، ولكن الأمر غير ذلك ، فترتيب الأطفال فى الأسرة يجعل لكل منهم بيئة سيكولوجية مختلفة عن بيئة الآخر . وهذا التباين فى البيئات يأتى من أن التفاعل بين الوالدين ، خاصة الأم ، وكل ابن من أبنائها ، يختلف حسب موقعه ، بالنسبة لها . فتفاعلها مع الطفل الأول ليس كتفاعلها مع الطفل الأوسط ، وتفاعلها مع الأوسط ليس كتفاعلها مع الطفل الأخير . كذلك فإن الطفل الوحيد له بيئة سيكولوجية تختلف عن بيئة الآخرين من ذوى الأشقاء . كما أن الطفل الذكر وسط مجموعة من الأخوات الإناث ، والبنت وسط مجموعة من الإخوة الذكور وضعا خاصا مميزا . ولا ننسى أيضا أن أوضاع الأسرة تختلف بالنسبة لكل طفل فى المراحل الحاسمة من نموه من حيث أعمار الوالدين عند إنجابه ، ومن حيث إمكانياتهما الاقتصادية ومكانة الأسرة الأدبية فى المجتمع .

وفيما يلى سنشير إلى بعض الإمكانات المرتبطة بكل من هذه المراكز الولادية (birth Positions) ليتضح أحد جوانب التأثير الأسرى على الطفل .

فالطفل الأول أو الأكبر (frist or older child) يأخذ قدرا أكبر من الاهتمام

ولكنه كثيرا ما يعانى من مشاعر قوية بالنقص أو الدونية . فهو دائما يوجد فى بيئة تضم كبارا أكثر قوة وأوسع خبرة . ولذا فإن لهذا المركز مشكلاته أيضا . وهو يأتى بعد الطفل الأول فى نسبة الأطفال المشكلين .

وأما الطفل الوحيد (Only Child) فهو مشكلة فى حد ذاته ، فمنافسه ليس الأخ أو الأخت ، ولكن منافسه تتجه إلى الوالد ، فهو كطفل وحيد يكون هدفا لتدليل أمه وهى تخاف أن تفقده فتحيطه برعاية زائدة ، وهو قد تَعُود أن يكون فى بؤرة الاهتمام ، ومكمن الخطورة بالنسبة لهذا الطفل أنه ينمو فى بيئة محدودة . ويكون تفاعله فى معظمه مع أفراد كبار فقط ، فهو محروم إذن من التفاعل الاجتماعى مع أطفال من سنه ، خاصة قبل سن المدرسة . وشبيه بموقف الطفل الوحيد - مع الفروق العديدة- موقف الطفل الذكر مع مجموعة من الأخوات الإناث ، أو موقف الطفلة الأنثى وسط مجموعة من الإخوة الذكور .

ومما هو جدير بالذكر أن الفترة الزمنية التى تفصل بين الطفل ومن يكبره أو من يصغره (birth Space) لها علاقة بالترتيب الولادى ومغزاه ؛ لأنه إذا طالت هذه الفترة فإن الدلالة النفسية لكل ترتيب أو مركز ولادى تتغير ، لأننا نتعامل مع الترتيب كمتغير سيكولوجى وليس كتدرج حسابى . فقد يصبح الطفل الأوسط مثلا طفلا أكبر إذا كان يفصله عن أخيه الأكبر عدد كبير من السنين ، بينما يصبح الطفل الأكبر وحيدا فى هذه الحال . وقد يصبح الطفل الأصغر ، من هذا المنظور ، وحيدا إذا كان إخوته يكبرونه بفترة زمنية طويلة . وهذا يعنى أن الأطفال يشغلون مراكز سيكولوجية وليست مراكز متتالية عددية فقط .

وعادة ما يقدر الباحثون الفترة الزمنية بين طفل وآخر التى يمكن أن تغير الترتيب بست سنوات ، أى مرحلة سيكولوجية كاملة من مراحل النمو (Cohen Beck-with,1977) بحيث يكون ترتيب المراكز الولادية كالآتى :

الأكبر : الطفل الأول فى المولد ويصغره طفل واحد على الأقل بفترة زمنية تقل عن ست سنوات .

الثانى : وهو الطفل الثانى فى المولد ، فى أسرة لها طفلان ، أى أن له أخا أكبر منه ، بما لا يزيد عن ست سنوات ، وليس له إخوة أصغر منه بأقل من ست سنوات .

الأوسط : وهو الطفل فى أسرة لها ثلاثة أطفال على الأقل ، بحيث تكون الفروق بين الطفل والذى يليه أو يسبقه أقل من ست سنوات .

الأصغر : وهو الطفل الأخير فى المولد لأسرة لها ثلاثة أطفال على الأقل ، بحيث لا تزيد الفترة الزمنية التى تفصله عن أخيه الذى يكبره مباشرة عن ست سنوات .

الوحيد : وهو الطفل الوحيد فى الأسرة ، أو الطفل الذى له أشقاء أكبر منه أو أصغر بست سنوات أو أكثر .

التوأم : وهو الطفل التوأم سواء أكان « متطابقا » (Identical) أم أخويا (غير متطابق وناتج عن إخصابين مختلفين) (Fraternal) .

ثانيا ، الأنساق الفرعية والأنساق الفوقية فى الأسرة

ويمكن فهم الأسرة على أفضل نحو ممكن باعتبارها كُلاً متكاملا إذا اتبعنا مبدأ الوحدة الأساسية الذى سبق أن أشرنا إليه ، ومن الصحيح تماما أن كل فرد من أفراد الأسرة يعد نسقا كاملا فى حد ذاته ، ويوجد هذا النسق « الفردى » داخل نسق أكبر ، وهو الأسرة النووية nuclear Family ، التى توجد بدورها - فى معظم الحالات - داخل نسق أكبر ، وهو المتمثل فى الأسرة الممتدة Extended Family . وإذا كان الفرد بالنسبة لأسرته النووية نسقا فرعيا Sub system ، فإن الأسرة الممتدة تعتبر نسقا فوقيا Supra system بالنسبة للأسرة النووية ، والأسرة الممتدة التى هى نسق فوقى لما تحتها أو لما تشمله وتضمه وتحتويه من أنساق ، هى ذاتها تعتبر نسقا فرعيا لأنساق فوقها كنسق القبيلة والمجتمع المحلى والاقليم والأمة كلها وهكذا . فكل نسق فرعى لما فوقه ، وهو نسق فوقى لما تحته ولما يحتويه من أنساق .

إن حديثنا عن الأسرة عادة ما ينصب على الأسرة النووية وما تشمله من أحداث وعلاقات داخل حدودها ، ولكن علينا أن نظل واعين أن هذه الأسرة النووية نسق فرعى لسلسلة من الأنساق الأشمل منها فى المجتمع ، وإن ذلك النسق الفرعى يتفاعل بدرجة ما مع الأنساق الأكبر التى تشمله وتحتويه ، وكما رأينا فإن الأنساق الفرعية هى أنساق داخل أنساق ، والعضوية فى الأنساق الفرعية عادة ما تتداخل معا . فكل فرد فى الأسرة يمكن أن يكون جزءا فى عدة أنساق فرعية داخل الأسرة فى نفس الوقت . فالزوجة أحد أفراد الأسرة ، وهى بهذه الصفة نسق فرعى للنسق الأسرى الأكبر ، وهى فى نفس الوقت تنتمى إلى نسق فرعى زواجى مع زوجها (زوج - زوجة) ، وهى تنتمى أيضا إلى نسق فرعى آخر (والدة - ابن) مع ابنها ، وكذلك فهى تنتمى إلى نسق فرعى ثالث وهو نسق (ابنة - والدة) مع ابنتها ، وكل هذه الأنساق الفرعية داخل النسق الأسرى الأصلى .

ويوضح كل من لانج وإيستروسون (Laing & Esterson) هذا التعدد والتنوع في الانتماءات لأحد أفراد الأسرة وليكن الفتى (و) فيقولان هب أن (و) لديه أب وأم وأخ يعيشون معا . فلو أردنا أن نكون صورة كاملة له بوصفه شخصا في الأسرة ، فيكون من الضروري أن نرصد خبراته وأفعاله من معيشته في هذه السياقات .

- (و) بمفرده .
- (و) مع أمه .
- (و) مع أبيه .
- (و) مع أخيه .
- (و) مع أمه وأبيه .
- (و) مع أمه وأخيه .
- (و) مع أبيه وأخيه .
- (و) مع أمه وأبيه وأخيه (Laing & Esterson , 1964, 20) .

وتعلق «سيبرج» على هذا قائلة « أن سلوكيات (و) يمكن أن تفسر أو يتم التنبؤ بها فقط من خلال معرفة مجال علاقته في أي لحظة معلومة . إن هذا يعقد التحليل بالطبع بصورة كبيرة . إن التحليل البسيط لنمط الشخصية يتناول دراسة أربعة أشخاص فقط (و- أم - أب - أخ) بينما يتطلب تحليل النسق (١٢) علاقة مختلفة على أقل تقدير ، لأن صيغة تحديد عدد العلاقات الممكنة هي ن (ن - ١) حيث إن ن = عدد أفراد الأسرة (Sieburg 1986, 22) .

وطبقا لما تقوله « سيبرج » فإن أسرة (و) تضم ٤ × ٣ = ١٢ علاقة ويمكن تصوير علاقات (و) في نسقه الأسري الضيق كما يلي :

(و) مع الأب	(و) مع الأب والأم
الأب مع (و)	الأب والأم مع (و)
(و) مع الأم	(و) مع الأم والأخ
الأم مع (و)	الأخ و الأم مع (و)
(و) مع الأخ	(و) و الأب والأخ
الأخ مع (و)	الأب والأخ مع (و)

ويمكن تمثيل هذه العلاقات بالشكل الآتى (شكل ٢/١) :

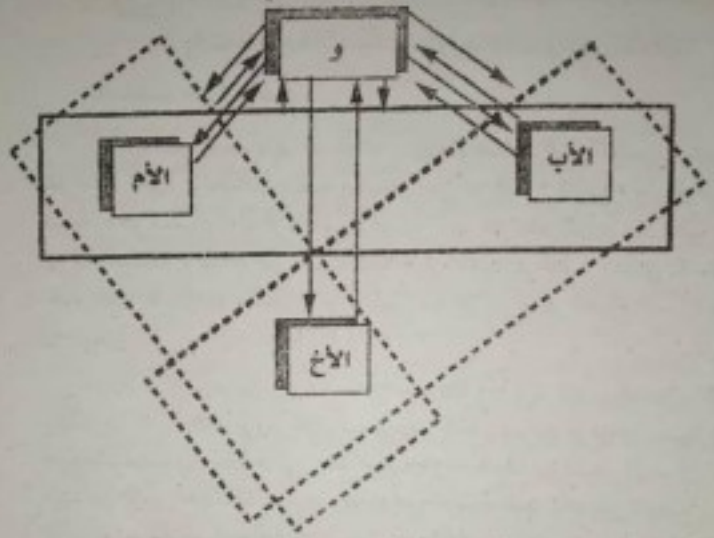

(شكل ٢-١)

جزء من شبكة العلاقات والتحالفات فى أسرة نووية صغيرة

وهكذا يظهر أن العلاقات الشخصية بين الأفراد فى أى تجمع ولو كان أسرة نووية صغيرة يخلق شبكة معقدة ومتداخله من العلاقات التى تتراوح من البساطة النسبية إلى التعقيد الشديد ، خاصة إذا كانت هناك تحالفات Coalitions داخل النسق الأسرى . وإذا أضفنا إلى ذلك أن (و) له علاقات أيضا بأنساق أخرى خارج نطاق النسق الأسرى مثل النسق المدرسى ونسق الصداقات ونسق رفاق الرياضة أو أى جماعة أخرى تزداد الشبكة تعقيدا . وقد يضطر النسق بكاملة أن يتفاعل مع نسق آخر ؛ لان أحد أفراد النسق له علاقات مع النسق الآخر . وكما أن للحدود بين الأنساق أهمية فى حجم وشكل التفاعل بين الأنساق ، فإن للحدود الداخلية بين الأنساق الفرعية - داخل النسق الواحد - أهمية خاصة كذلك .

ثالثا ، تطبيقات مبادئ نظرية الأنساق على الأسرة

١ ـ قواعد النسق الأسرى :

الأسرة نسق يحكمه قواعد rules . وينتظم تفاعل أفراد الأسرة حسب هذه القواعد ، بحيث توجد أنماط منظمة وراسخة تجعل من الممكن لكل فرد من أفراد الأسرة معرفة ما هو مسموح له به أو ما هو متوقع منه . إن مثل هذه القواعد وهى غير مصاغة فى كلمات عادة ، تساعد على تثبيت كيفية عمل الأسرة كوحدة ، وتشكل الأساس فى تطور تقاليد الأسرة ، وتحدد إلى درجة كبيرة ما هو متوقع من أعضاء الأسرة بعضهم إزاء بعض .

ولقد كان « دون جاكسون » (Don Jackson) – وهو أحد رواد علاج الأسرة– أول من لاحظ أن التفاعل فى الأسرة يسير وفق أنماط وقوانين أو قواعد معينة ثابتة . فالزوجان عندما يتزوجان – وفى بداية حياتهما الزوجية وتكوين أسرة – يجد أن أمامهما كثيرا من الأمور عليهما أن ينجزاها وفق قواعد معينة ، بعضها شائع فى المجتمع وبعضها الآخر قد يكون من اجتهادهما بما يناسب ظروفهما وإمكانياتهما ، من كسب المال إلى تدبير شئون المنزل والعلاقات الاجتماعية وإنجاب الأطفال وتربيتهم. وكما يقول جاكسون فإن عليهما وبصورة محددة تقريبا أن يضعا حدودا لحقوق وواجبات كل واحد منهما ، علما بأنه قد أكد على مبدأ « المعاملة بالمثل فى الزواج » (marital quid Pro quo) والذى فى ضوئه يعطى كل زوج ويتلقى شيئا بالمقابل (Jackson , 1965,S92).

وقد واصل جاكسون دراسة قواعد الأسرة ، وافترض أن هذه القواعد تيسر السلوك أمام أفراد الأسرة ، فبدلا من العدد اللانهائى من أساليب السلوك المتاحة أمام الفرد فإن قواعد الأسرة تحدد الأساليب فى اختيارات قليلة ، وهو مبدأ « الوفرة » (redandancy) . وقد أكد « جاكسون » على أن قواعد الأسرة وليس احتياجات الأفراد أو دوافعهم أو سمات شخصياتهم هى التى تحدد تتابعات التفاعل بين أفراد الأسرة (Jackson , 1965b , 17) .

ويمكن أن تكون القواعد وصفية تصف أنماط التفاعل والتبادل ، وقد تكون توجيهية تحدد ما يمكن حدوثه بين الأفراد وما لا يمكن حدوثه أو ما لا ينبغى حدوثه؛ لأنها تهدف إلى إقامة العلاقات الأسرية والإبقاء عليها ، علما بأن الإبقاء على هذه العلاقات هو إبقاء على الأسرة ذاتها ، وإلا فلا يكون أمامنا أسرة . والقواعد الأسرية فى جوهرها مجموعة من الالتزامات والامتيازات والحقوق الخاصة ببعض الأعضاء والتى

هى واجبات للبعض الآخر وهكذا . ويحدد الالتزامات والامتيازات والحقوق والواجبات متغيرات مثل العمر أو الجنس أو المركز فى الأسرة (أب - أم - أخ أكبر - أخ أصغر) وهكذا.

ويتعلم جميع أفراد الأسرة ما وراء القوانين أو القوانين البعدية metarules وهى القواعد والقوانين والمبادئ والأسس التى صيغت على أساسها قواعد الأسرة، والتى تكون عادة على شكل إرشادات وتوجهات أسرية من شأنها أن تفسر قواعد الأسرة، والتى تفسر أيضا كيف تتغير قواعد الأسرة (Goldenberg&Goldenberg 1991,37).

وبعض قواعد الأسرة تكون واضحة لغويا على شكل تعليمات أو توجيهات أو نصائح تعلن لأعضاء الأسرة فى مناسبات عديدة ، ولكن بعضها الآخر يكون خفيا أو مقنعا Covert وغير مصاغ فى كلمات ، أى أنها استنتاجات يخلص إليها جميع أفراد الأسرة من خلال أنماط تفاعلهم وحسب خبرتهم لعلاقاتهم مع بعضهم البعض ، ويتصرف الآباء حسب قواعدهم المقنعة وغير المصاغة فى كلمات إلا إذا اقتضى الموقف غير ذلك « فالبنات يساعدن فى المطبخ ، ولا يطلب ذلك من البنين » « على الأطفال أن يلعبوا وأن يتحملوا كل منهم الآخر وألا يشركوا الكبار فى مشاحناتهم » . ورغم أن هذه القواعد غير مصاغة لغويا فى كل الحالات إلا أن أفراد الأسرة يعرفونها ويتصرفون على أساسها . وفى الأسرة السوية أو الأسر التى تسير أمورها معتمدة على تفاعلات صحية تساعد القواعد فى الحفاظ على النظام والاستقرار وتسمح فى نفس الوقت بحدوث التغيرات المطلوبة طبقا للظروف المتغيرة .

ولأن هذه القواعد غير المكتوبة هامة فى تحديد أنماط التفاعل فى الأسرة ؛ ولأنها فى الأسر التى لا يقوم التفاعل فيها على أساس صحي فإن المجال يكون واسعا فى فهم وإدراك هذه القواعد ، فكل يفهمها حسب هواه وحسب إدراكه للأعضاء الآخرين . ولذا اتجه بعض المعالجين والمرشدين النفسيين الأسريين عند إرشاد وعلاج أسرهم إلى توضيح هذه القواعد لأعضاء الأسرة وتوحيد مفاهيمها ومضامينها للجميع ، خاصة وأن بعض هذه الأسر تضع قواعد ولا ترحب بمناقشتها أو توضيحها لكونها تمس بعض الموضوعات الحساسة فى الثقافة ، أو لأنها تمس بعض أعضاء الأسرة على نحو يتحرج منه الأعضاء الآخرين.

وعلى رأس المعالجين الذين اعتمد منهجهم فى العلاج على توضيح قواعد الأسر «فرجينيا ساتير» (Virginia Satir) ويعتمد هذا المنهج العلاجى أو الإرشادى على

مساعدة الأسرة فى إدراك قوانينها غير المكتوبة ، خاصة تلك التى تشمل تبادل المشاعر أو تلك التى تسبب الألم للأسرة أو لبعض الأفراد فيها على وجه الخصوص ، وتسلك بعض الأسر على نحو يجعل من فهم القواعد أمرا صعبا مثل الأسرة التى تمنع مناقشة بعض الموضوعات ، أو الأسرة التى لا ترحب بالتعبير عن الغضب أو الانفعال، بل إن بعض الأسر تمنع التعبير عن الضعف أو الغيرة ، وبعضها يشجع التعبير عن المشاعر الزائفة غير الحقيقية مجاراة للمواضعات الاجتماعية . ومعظم هذه الأسر تفشل فى اتخاذ خطوات واقعية لإزالة المشاكل . وبعض الأسر يكون رأيها غامضا إزاء بعض المواقف مثل مواقف العدوان فقد تشجع رد العدوان (إزاء الأفراد من خارج النسق الأسري) وتكفه فى نفس الوقت (إزاء الأفراد من داخل النسق الأسرى) ، وقد يكون موقفها غامضا وحائرا بل وغاضبا إزاء موضوعات أخرى مثل الجنس أو العلاقات مع أنساق أسرية أخرى .

وترى « ساتير » أن الأسر المختلة وظيفيا عادة ما تتبع قواعد مختلة وظيفيا ، ولذا فهى تحاول مساعدة مثل هذه الأسر لتصبح مدركة لهذه القواعد غير المكتوبة التى تعين على النمو والنضج . وما أن يتم تحديد هذه القواعد يكون من الممكن أن تقوم الأسرة بتعديل أو بنبذ تلك القواعد التى أصبحت قديمة أو غير ملائمة وذلك لتحسين أداء النسق الأسرى ككل . (Satir , 1972) .

ب - اتزان النسق الأسرى

أوضح علماء الفيزيولوجى منذ الثلاثينات أن جسم الإنسان له القدرة على العمل كنسق أو كنظام ذاتى التشغيل ، ويحافظ على وضع ثابت رغم إمكانية حدوث تغيرات كبيرة فى البيئة الخارجية . فقد شرح « كانون » فى كتابه عن « حكمة الجسم » كيف أن الجسم يحتفظ بدرجة حرارته عند (٣٧) درجة تقريبا رغم وجود الإنسان فى بيئات مختلفة متباينة قد ترتفع فيها درجة الحرارة أو تنخفض كثيرا عن هذا المعدل ومع ذلك فإن الجسم يبقى على درجة حرارته . ويتم ذلك عن طريق تشغيل جميع آليات تنظيم الجسم كالتعرق والاحتفاظ بالسوائل بل والارتعاش من أجل الحفاظ على ثبات درجة الحرارة فى الجسم إذا ماحدث تغير مفاجئ فى درجة الحرارة فى البيئة الخارجية المحيطة (Cannon , 1932) .

وهذا التوجه التلقائى للجسم للحفاظ على الاتزان balance أو التوازن equilibrium يسمى بالتوازن الحيوى hemeostasis . وإذا استخدمنا مصطلحات السيرانية

(التى سبق أن أشرنا اليها فى الفصل الأول) وهى علم التحكم الآلى فإننا نقول أن الجسم كنسق اجتماعى بيولوجى دينامى dynamic biosocial system يتبادل المعلومات مع العالم الخارجى ، ويستخدم عمليات التغذية المرتدة للحفاظ على الثبات الداخلى ، والجسم فى حالة مستمرة من العمل لتصحيح أوضاعه وحالاته للحفاظ على هذا التوازن. والجسم هنا مثل الشخص الذى يمشى على حبل مشدود يظل يتحرك لحركات توازنية محسوبة حتى لا يسقط.

وما يحدث على مستوى النسق الجسمى للفرد يحدث على مستوى الأنساق الأخرى وفى مقدمتها النسق الأسري، حيث يقوم النسق الأسرى بعمليات يقصد منها إحداث التوازن والاستقرار فى بيئته ، أى أن افراد الأسرة سوف يحاولون استعادة البيئة المستقرة كلما اختل نظام البيئة . ومن وظائف ميكانزم الاتزان أنه لا يسمح لأى انحراف أن يزيد ويضع أسقفا أو حدودا عليا لتصاعد التفاعلات خاصة السلبية فيها ، ويضرب جولدنبرج وجولدنبرج مثلا على ذلك حيث يقولان « لا يسمح مثلا لمشاجرة بين طفلين أن تتصاعد إلى حد الاعتداء الجسدى ، وفى مثل هذه الحال يقوم أحد الوالدين بواحد أو أكثر من السلوكيات الآتية :

- ضرب أحدهما أو كلاهما .
- توبيخ أحدهما أو كلاهما .
- تذكيرهما بروابطهما الأسرية ومسئولياتهما .
- عقاب أحدهما أو كلاهما .
- عناقهما وحثهما على التصالح وتسوية الأمر .
- التصرف كحكم ومحقق ومعرفة من المخطئ أولا وردعه .
- إبعاد كل منهما عن الآخر إلى أن تهدأ انفعالاتهما .

ومهما كان الأمر فإن الجهد موجه على الأقل جزئيا لاستعادة التوازن الذى اختل بمشاجرة الطفلين (Goldenberg & Goldenberg1991, 38) .

وبطريقة مشابهة يقوم الزوجان عادة بمراجعة ومراقبة وضع علاقتهما - دون أن يدركا أنهما يقومان بذلك - ويوفران من العطيات والمدخلات ما يمكنهما من إعادة حالة الثبات إذا ما هددت بعض الأخطاء أو التجاوزات أو حتى الظروف الخارجية توازنهما السابق ، وتنشأ بينهما لغة خاصة أو شفرة يستطيع كل شريك منهما أن يلمح للشريك الآخر بالصورة التى تسمح بمحاصرة الخطأ أو التجاوز والتى تساعد على استعادة الاتزان.

وعادة ما يتم تشبيه محاولات الأسرة لاستعادة توازنها إذا ما اختل أو انحرف بمنظم الحرارة Thermostat الذى يبقى درجة الحرارة عند مستوى معين فيخفضها إذا ارتفعت ويرفعها إذا انخفضت . ولو أن هذا التشبيه قد تجاوز فائدته فى نظر بعض النقاد مثل ديل (Deli , 1982) و « هوفمان » (Hoffman , 1981) اللذين يريان أن نموذج منظم الحرارة يتضمن ازدواجيته بمعنى أن أجزاء من النسق تتقابل فى حين أن النسق الأسرى تشارك جميع أجزائه فى التغير ، كما أن منظم الحرارة يعود بدرجة الحرارة إلى نقطة ثابتة وهى التى كانت سائدة قبل التغير ، أما النسق الأسرى فلا يعود إلى نفس النقطة دائما من حيث إن كل الأنساق الإنسانية والاجتماعية تتغير وتتطور وليس لها ثبات مطلق . ومن هنا فإن « ديل » يرى أن مهمة المرشد أو المعالج الأسرى ليس مساعدة أفراد الأسرة على العودة إلى الاتزان السابق لأنه ليس اتزانا صحيا ولكن مهمته تتركز فى إجبار الأسرة على البحث عن حلول جديدة أو إخراج الأسرة من حالة التوازن القديمة إلى تحقيق مستوى جديد من الاستقرار من خلال عمليات إعادة التنظيم والتغيير . (Deli , 1982 , 30-35)

وتؤدى آليات الإتزان وظائفها فى الحفاظ على الاستقرار من خلال تفعيل القواعد التى تحدد علاقاتهم ، وهنا تثور بعض الأسئلة التى تتعلق بقدرة الأسرة على تحقيق توازنها والحفاظ عليه ، مثل ما الذى يحدث عندما يتوجب على الأسرة أن تغير أو تعدل فى قواعدها عندما تواجه بظروف جديدة ؟ وما مدى تكيف أو مرونة القوانين أمام تغير أنماط راسخة أو مألوفة فى أسر معينة ؟

ويلاحظ أن الأطفال فى نموهم غالبا ما يضغطون على الأسرة مما يستوجب أن تغير من قواعدها ونظمها أو تعيد ترتيب علاقات أفرادها بعضهم ببعض ، فالأطفال عندما يكبرون ويدخلون مرحل المراهقة يريدون زيادة فى مصروفهم الشخصى مما قد يثقل كاهل الأسرة المادى ، ويحتاجون إلى درجة أكبر من الحرية فى الخروج والدخول من المنزل وإليه واختيار الأصدقاء والمبيت عند بعضهم وسماع الموسيقى الصاخبة واقتراض السيارة ، ومتابعة اهتمامات تختلف تماما عن تلك التى تنشغل بها الأسرة على نحو تقليدى أو معتاد . وكثيرا ما يتحدى المراهقون قيم الأسرة وعاداتها وأعرافها علانية وبوضوح ، ويصرون على أن يعاملون كأنداد ، ويسبب المراهقون بذلك خللا فى التوازن الأسرى ، ويظل الوضع يعانى من الخلل ، إلى أن يستطيع النسق الأسرى أن يستعيد توازنه .

وكما يوضح كل من «منوشن» (Minuchin) و « روسمان » Rosman و«بيكر» Baker فى سياق دراستهم لفقدان الشهية العصبى كأحد الأعراض الجسمية النفسية أن

٢٤

النسق الأسرى فى بعض الحالات يميل إلى أن يبقى ذاته ضمن حدود مفضلة ومألوفة لديه . كما أن الميل للانحراف أو التغيير الذى قد يكون قويا جدا أو مفاجئا جدا بما يفوق قدرة النسق على الاحتمال والاستيعاب يمكن أن يواجه من النسق باستجابات من الانحراف المضاد Counterdeviation وفى الأسر المضطربة قد تواجه الحاجة حتى لأكثر التغيرات ضرورة بتشدد متزايد مع محاولة الأسرة الإبقاء على القواعد المألوفة . وقد تنشأ الأعراض لدى أحد أعضاء الأسرة عندما يكون نظام الأسرة متسما بالجمود وعدم المرونة بالدرجة التى لا تسمح بالتغير لاستيعاب احتياجات أفراده المتطورة والمتغيرة . Minuchin Rosman , Baker , 1978

ج - التغذية المرتدة والمعلومات والضبط فى النسق الأسرى

الأنظمة فى تغير مستمر لأنها تستجيب لقوى خارجية ، وهى فى نفس الوقت تسعى لتحقيق أهدافها . ويشير الاتزان كما بينا إلى الثبات أو التوازن بين الحاجة إلى التغير والحاجة إلى ضبط التغير مع أجل من الحفاظ على سلامة النسق . أن الآلية التنظيمية التى يتمكن النظام من خلالها من الحفاظ على الاتزان فى نفس الوقت الذى يقوم فيه بمراقبة محاولاته لتحقيق بعضا من أهدافه يشار إليها بنظام «التغذية المرتدة» (Feedback) (Leslie , 1988) .

وتشير التغذية المرتدة إلى إعادة إدخال نتائج الأداء السابق إلى مدخلات النسق من جديد كوسيلة لمراقبة الأداء وتحسينه . بمعنى أن النتائج التى تعتبر مخرجات النسق يعاد إدخالها أو إدخال بعضها مرة أخرى كمدخلات للاستفادة منها فى التصحيح والتحسين للأداء فيما بعد بطريقة دائرية أو حلقية ، وهذه هى حلقات التغذية المرتدة Feedback Loops . وفى أى نسق ذاتى التنظيم تساعد مثل هذه الآليات الموازرة (مثل عدادات الضغط أو منظمات الحرارة) فى تنشيط العمليات التفاعلية الداخلية التى تحافظ على الثبات داخل النسق وتضمن له حالة من الوجود الديناميكى المستقر والثابت .

وتساعد حلقات التغذية المرتدة فى التهدئة من التأرجحات والتذبذبات المتزايدة لتساعد بهذا فى الإبقاء على حياة النسق ، ومن ثم على توسيعه وتمديده . وكما أشرنا من قبل فهناك التغذية المرتدة السالبة التى تعمل على التصحيح عن طريق التقليل أو التخفيف من المدخلات حتى يعود النسق إلى حالة الاستقرار والاتزان ، بينما تعمل التغذية المرتدة الموجبة على تضخيم رد الفعل حيث تعمل على زيادة أو تسريع الانحراف الأولى ، والتغذية سواء سالبة أو موجبة تنشط أو تحث على الخطأ أو الانحراف لتحدث

عمليات التصحيح والضبط الذاتية كما يحدث فى حال منظم الحرارة . وإن كانت هذه العمليات تحدث فى الإتساق الإنسانية والاجتماعية على نحو أكثر تعقيدا . ويستمر النسق فى الاستجابة حسب ما تمت برمجته عليه إلى أن يحقق الهدف المحدد له سلفا . ولكن إذا حدث التصعيد إلى حدود قصوى أو إلى أقصى ما يتحمل النسق فقد يتحطم النسق ويدمر ذاته ، مثل الجهاز الكهربى الذى يدخل إليه تيار أكبر من حمولته .

إن الاستقرار لأى نسق يمكن تحقيقه من خلال عمليات التغذية المرتدة السالبة والموجبة . ولا ينبغى أن تعتبر كل التغذية المرتدة الموجبة ضارة أو مدمرة لعمليات النسق. إن الاتزان لا يعنى السكون الجامد ، بل إن الثبات يستدعى الاعتراف بالتغير، وغالبا ما يأتى - كما يقرر « جولدنبرج وجولدنبرج » - من خلال انفراجات مفاجئة تدفع الاسرة لما وراء مستوى الاتزان السابق الخاص بها . Goldenberg & Golden-berg , 1991 , 43 . وقد يكون من المفيد أحيانا دفع أسرة ذات أنماط سلوكية جامدة، أو أنماط لا يمكن الدفاع عنها أو الحفاظ عليها إلى مستويات جديدة من العمل . وتكون مهمة المرشد أو المعالج الأسرى هنا أن يتهز فرصة اختلال التوازن فى النسق ليعمل على استعادة هذا التوازن على مستوى جديد أكثر صحة وسلامة . وينبغى أن يكون المرشد أو المعالج مدركا لجهود أفراد الأسرة فى تقويم استجاباتهم لمثل هذه الحالات ومساعدتهم على تكييف وضبط استجاباتهم هذه بدقة من أجل أداء وظيفى أكثر فاعلية يليق بالأسرة كوحدة ونسق .

كذلك فإن معالجة المعلومات والبيانات Information Processing أمر جوهرى فى أى نسق . ويمكن أن نستنتج أن البيانات المدخلة إلى النسق لو كانت خاطئة فإن هذا سينتهى إلى أن يؤدى النسق وظائفه بشكل خاطئ أو منحرف . ويساعد تبادل المعلومات بحرية داخل النسق الأسرى وبين الأسرة والعالم الخارجى على التقليل من حالة الحيرة، وبالتالى يساعد على تجنب الاضطراب . وبصفة عامة فإن تبادل المعلومات أساسى لجميع الأنساق الحية والتنامية ، ذلك أن المعلومات الجديدة المدخلة تسترجع ، كما تجرى تغييرات فى المخرجات استجابة للمدخلات الجديدة . والمعلومات بمعنى من المعانى هى الاختلافات أو التباينات التى تصنع الفروق أو التميزات أو بلغة المصطلحات البنشخصية فى الأسرة هى العلامات مثل الكلمة أو الإيماءة أو الابتسامة أو العبوس فهى كلها اختلافات أو تغيرات فى البيئة تقابل انخفاض درجة الحرارة كأحد المدخلات البيئية . وهذه الاختلافات تصنع بدورها الفروق عندما يقوم متلقى المعلومات الجديدة بتغيير إدراكاته للبيئة ويعدل من سلوكه التالى .

د - حدود النسق الأسرى

الحد boundary هو خط غير مرئى لتعيين الخطوط الفاصلة بين نسق وآخر أو بين الأنساق الفرعية داخل النسق الأكبر أو الفوقى أو حتى بين الفرد والبيئة الخارجية المحيطة ، وفى نسق كالأسرة تحيط الحدود وتحمى كيان النسق وتصون سلامته . وتقرر ما الذى يعتبر داخل النسق أو جزءا منه وما الذى يعتبر خارج النسق ومنفصلا عنه (Gold-enberg & Goldenberg , 1991,45) .

وتقوم حدود النسق بمهمة حارس البوابة الذى يضبط تدفق المعلومات إلى النسق ومنه . وداخل الأسرة نفسها تميز الحدود بين الأنساق الفرعية المتضمنة فى النسق الأسري . ويؤكد « منوشن » أن هذا التقسيمات يجب أن تكون واضحة ومحددة بصورة كافية لتسمح لأفراد الأنساق الفرعية بأداء مهامهم بدون تدخل غير ضرورى ، وقد يكون معيقا ، فى الوقت الذى يتيح فيه وضوح الحدود حدوث الاتصال الصحى بين أعضاء النسق الفرعى والآخرين (Minuchin , 1974) . وهكذا فإن الحدود تساعد فى حماية استقلال الأنساق الفرعية مع الحفاظ على الاعتماد المتبادل بينها فى الأسرة .

فقد تحدد الأم حدود النظام الفرعى الخاص بالأبوين وسلطتهما عندما تقول لابنها الأكبر « مالك أنت وأختك حتى تحدد لها ما تراه من برامج التليفزيون أو غيرها من الأنشطة . أنتى ووالدك فقط اللذين نقرر ذلك » ويمكن أن تحدد مسئوليات النسق الفرعى الخاص بالأخ الأكبر وتزيد من اختصاصاته عندما تقول لأبنائها الصغار : « أريد منكم جميعا أن تطيعوا أخاكم الأكبر عندما أكون أنا ووالدكم خارج البيت » ، وقد تكلف نسقا فرعيا آخر فى الأسرة لتحمل مسئولية معينة عندما تطلب من الجد أو الجدة تفقد الأطفال أو تنصح الابن الأكبر حول ما ينبغى عمله فى ظروف معينة وذلك عند غياب الوالدين .

ومن ذلك يظهر أن وضوح حدود الأنساق الفرعية مهم جدا فى فاعلية عمل الأسرة وتفوق أهميته تكوين الأنساق الفرعية ذاتها . وفى الأسرة السوية ينبغى أن تظل مسئولية الأنساق الفرعية واضحة . فالجدة التى تتدخل فى طريقة إدارة ابنتها للمنزل أو طريقة تربيتها لأطفالها بطريقة قد تضعف النسق الفرعى المكون من أحد الأبوين والطفل (وربما تؤثر على النسق الفرعى المكون من الأبوين بشكل سلبى أيضا) وهي بذلك تتجاوز سلطتها من خلال تدخلها وتجاوزها للحدود فى الأسرة .

وترتبط مسئولية الأنساق الفرعية بقضية هامة فى حدود الأنساق ، وهى نفاذية Permeability هذه الحدود ، فالحدود تتباين فى مدى سهولة تدفق المعلومات من النسق

الفرعى وإليه . ولا ينبغى أن تكون الحدود داخل الأسرة واضحة فقط بل ينبغى أيضا أن تكون القواعد ظاهرة أمام الجميع . وإذا كانت الحدود غامضة أو صارمة أكثر من اللازم فإنها تفتح الباب للخلط والاضطراب ، وتزيد من مخاطر عدم الاستقرار والاختلال الوظيفى فى الأسرة . إن النسق الذى يتميز بتدفقية عالية فى المعلومات من وإلى الخارج يعتبر نسقا مفتوحا Open System فى حين أن النسق الذى يصعب عبور حدوده فإنه يسمى نسقا منغلقا Closed System .

هـ - الانفتاح والانغلاق فى النسق الأسرى

كما سبق أن أوضحنا فى الحديث عن مبادئ نظرية الأنساق العامة أنه يمكن النظر إلى النسق من زاوية الانفتاح أو الانغلاق فيوصف النسق بأنه نسق مفتوح إذا كان يحافظ على نفسه من خلال عملية مستمرة من المدخلات والمخرجات،أى أنه فى حال تبادل دائم للمعلومات والطاقة مع البيئة الخارجية ، وهو بذلك يتجدد وينمو . أما النسق المنغلق فإنه مبتور الصلة بما حوله ، ولا يسعى إلى تبادل المعلومات والطاقة مع البيئة المحيطة ، بل يحاول أن يحافظ على توازنه داخل حدوده فقط . وقلنا أيضا أن الأنساق الإنسانية والاجتماعية مثل الفرد والأسرة عادة ما تكون أنساق مفتوحة ، بعكس الآلات مثلا فإنها أنساق أو أنساق منغلقة .

ويلاحظ أن هناك أسرا أقرب إلى الانغلاق منها إلى الانفتاح وتتسم بالتشدد والانعزال ، وهى الأسر التى تكون قدرتها على التكيف أقل ، وهى أيضا أقل مرونة وقدرة على التغير ، وهى غير قادرة على الاستفادة من التجارب الجديدة ، وأقل قدرة على رفض أو تغيير الأنماط التفاعلية التى ثبت أنها غير صالحة .

ويصف جولدنبرج وجولدنبرج الأنساق الأسرية المفتوحة بأنها أنساق لديها «توظيف جيد للطاقة » (engentropy) ، كما يصف الأنساق الأسرية المنغلقة بأنها انساق لديها إهدار للطاقة» (entropy) (Goldenberg , Goldenberg , 1991,46) والأنساق المنغلقة تهدر الطاقة لأنها تنفقها فى مواءمات غير متوافقة ، وتعزل نفسها عن تيار التغيرات المفيدة ،وتحرم نفسها من التجارب الجديدة ، وهى بذلك تتجه تدريجيا نحو الاختلال الوظيفى. ومن أمثلة الأنساق الأسرية الأقرب إلى الانغلاق أسر المهاجرين الجدد فى أوطان جديدة ، وكذلك المجموعات العرقية وبعض الأقليات الدينية، فهى أسر تعيش فى عزلة نسبيا، وتتواصل مع بعضها البعض فقط، وتنظر بشك وارتياب

للآخرين ، وتعزز الاعتماد على الأسرة ، وغالبا ما تميل هذه الأسر إلى التمسك بالتقاليد على نحو جامد وتتجنب التغيير ، وقد تواجه علاقات الوالدين بأبنائهم مشاكل بسبب الصراع الثقافي . والأسرة لأنها نسق إنساني اجتماعي فهي أقرب إلى أن تكون نسقا منفتحا ، ولو إلى درجة ما ، ولا تستطيع أسرة أن تكون منغلقة انغلاقا كاملا؛ لأنها تكون منتمية إلى نسق آخر أكبر يتضمنها ويستوعبها ، ولابد وأن تتفاعل مع هذا النسق الأكبر بطريقة ما. وإذا أردنا الدقة في التعبير فإننا عندما نتحدث عن انفتاح الأنساق الأسرية فإننا نقصد الانفتاح النسبي ، وعلى ذلك فإن الأسرة التي لديها درجة قليلة جداً من الانفتاح هي نسق منغلق أو أقرب إلى المنغلق ، فالحقيقة أنه لا يوجد نسق منفتح تماما أو نسق منغلق تماما، فالنسق المنفتح تماما لن يكون هناك حدود بينه وبين العالم الخارجي ، وسوف ينتهي وجوده كنسق ، أما إذا كان منغلقا تماما فسوف تنقطع العلاقات والتبادلات بينه وبين البيئة الخارجية مما يؤدي إلى اختناقه واضطرابه. وإذا تحدثنا بلغة الحدودية ونقاذيتها نقول : إن الانساق توجد على متصل من حيث الحدودية يبدأ بأقصى درجات المرونة Flexibility وينتهي بأقصى درجات الجمود rigidity .

وفي الفقرات القادمة سنتحدث عن بعض الإمكانيات والخصائص المرتبطة بكل من النسق المنغلق والنسق المنفتح من الأسرة .

١ / النسق المنغلق من الأسرة :

تكون الأسرة منغلقة عندما تعزل نفسها ماديا ونفسيا عن المجتمع الذي تعيش فيه، أو يكون لأفرادها اتصال محدود بخارجها . وقد يميل أعضاء هذه الأسرة إلى عزل أنفسهم والانسحاب من مطالب المجتمع التي يخشون ألا يستطيعون الوفاء بها . إن مثل هذه الأسر يكون لها قواعد إجبارية قوية تجعل أفرادها مختلفون عن أفراد الأسر الأخري، ويبنون حدودا جامدة تحول دون تدفق المعلومات إنهم بذلك يمثلون أفضل تمثيل لما اسماه «البرت الليز» بالدائرة المغلقة (Closed Circuit) (Elles, 1967,215).

ويشير كانتور ولبهر إلى ملاحظة هامة تميز تنظيم الأسرة المنغلقة وهي أن المسافة الاجتماعية والمادية بين الأعضاء محدودة تحديدا جامدا وصارما ، وهي منظمة أشبه بتنظيم حركة المرور من قبل من يدعم السلطة . وتتخذ في هذه الأسر إجراءات تعطي طابعا منغلقا وسريا للأسرة مثل قفل الأبواب واتخاذ إجراءات أمنية وكأنهم يعيشون في وسط أعداء ، وهناك مواعيد ونظم لتحركات الأبناء ، كما أن هناك ضبطا وإشرافا والديا دقيقا على اتصالات الأبناء ، وحتى أن رقم التليفون لا يوضع في الدليل . ويسود الأسر جوا من التكتم في تناولهم لشئونهم وكأنها أسرار محظورة . وتعتقد

الأسرة أن من صالحها «الحفاظ على أسرارها» فى الوقت الذى تعتبر دخول أفكار غريبة إليها نوعا من الغزو. وهذه الأسر لا تقدم للناس إلا ما تريده هى أن يعرفه الناس عنها. (Kantor& Lehr,1975 , 119-120).

وهذه الفكرة التى تكونها الأسرة المنغلقة عن نفسها والتى تريد أن يعرفها الناس عنها هى أقرب إلى الأسطورة myth وتصوغها الأسرة بعناية ودقة وتريد ألا تتجاوز نظرة الناس إليهم هذه الأسطورة التى نسجوها ويتعاملون مع المجتمع الخارجى من خلالها ، ويحافظون عليها ويريدونها باقية حيه مهما تعارضت مع المعطيات والوقائع . وهذه الأسطورة التى تريد الأسرة أن تقنع بها أفرادها وتقنع الناس بها كثيرا ما تكون المصدر المحتمل للمرض النفسى لأفراد الأسرة كما سنرى فى الفصل القادم .

وتتميز الأسر المنغلقة إضافة إلى عزلتها أن أفرادها ينغمسون انغماسا زائدا Over involvement . وإذا كانت الحدود الخارجية للنسق الأسرى المنغلق صلبة وغير قابلة للنفاذ - طبقا لعزلتها - فإن الحدود الداخلية بين الأنساق الفرعية داخل الأسرة تكون ضعيفة وتتميعة . ويترتب على ذلك أن أعضاء الأسرة بدلا من أن تكون لهم اتصالاتهم بخارج الأسرة تنحصر اتصالاتهم داخلها ويزداد اندماجهم وانغماسهم داخل هموم ومشاغل الأسرة . ولذا تتميز علاقاتهم بالإفراط فى « المعية » Togetherness والوجود معا معظم الوقت وتقلص الخصوصية الشخصية حتى يصلوا فى النهاية إلى فقدان الاستقلال الفردى individual autonomy ، وهى من العمليات الأسرية المهدة لاضطراب بعض أفراد الأسرة ، ويطلق عليها مصطلحات « الانصهار » (fusion) أو «الاندماج » (merger) أو « الوقوع فى الشرك » (enmeshment) أو « نقص التمايز» (lack of differentation) .

وبعد خاصيتى العزلة والاندماج الزائد تأتى الخاصية الثالثة التى تميز الأسر المنغلقة وهى الجمود rigidity وعدم المرونة inflexibility وتظهر هذه الخاصية الأخيرة فى علاقات أفراد الأسرة واتصالاتهم . ففى هذه الأسرة لا يسمح فيها إلا بقدر ضئيل من التغير ، وتتسم علاقاتهم معا بالجمود ، وتظل العلاقات كما هى لا تتغير . وحتى التغيرات الضرورية التى ينبغى أن تترتب على تغير أوضاع أفراد الأسرة وأدوارهم لا يحدث فيها تغير ، فالطفل الصغير يكبر ويصبح مراهقا ويصبح بعد ذلك راشدا ومع ذلك فقد تظل معاملته من قبل الوالدين كما هى ، وليس هذا الأمر قاصرا على الأبناء بل إنه يشمل كل أفراد الأسرة فالزوجة الصغيرة المدللة قد تظل تسلك على هذا النحو حتى بعد أن تكبر ويصبح أبناؤها شبابا (Laing , 1961 , 84) . وتظهر سمة الجمود أكثر ما تظهر فى علاقات الأم بأبنائها أو بأحدهم حيث تظل تعامله معاملة الابن الصغير

حتى يصل إلى مرحلة المراهقة (Infants adolescence) ولا تسمح هذه الأم لطفلها بالانفصال الشخصى عنها وتنمو بينهما العلاقة التكافلية التى تكمن كثيرا وراء حالات إصابة الأبناء بالفصام عندما تتهدد هذه العلاقة أو تنقطع. (كفافى، ١٩٩٧، ٢١٩، ٢٢١).

وتتميز الاتصالات داخل الأسرة المنغلقة بأنها جامدة وميكانيكية ومقررة سلفا، كما يميل أفراد الأسرة إلى الحديث نيابة عن بعضهم البعض، فتقص التلقائية وسيادة شعارات الأسرة « والكليشيهات » المرتبطة بأسطورة الأسرة لا تسمح لكل منهم أن يعبر عن نفسه بالطريقة التى يريدها والتى تعكس مشاعره الحقيقة. وكثيرا ما يقوم أحد أفراد الأسرة بإنهاء الحديث الذى بدأه عضو آخر أو تكميله. وتكون الردود على الأسئلة مقتضبة ومحددة وتفتقر إلى العفوية والتلقائية. وليس كل الموضوعات عرضة لتناولها والحديث فيها، فالموضوعات محددة وغالبا مالا تمس حاجات حقيقية عند أفراد الأسرة بينما تشيع الموضوعات المحرمة Taboos. ويزداد سمك وصلابة الحد الخارجى للأسرة، ولا يقوم بوظيفته الأصلية كمرشح، ولكنه يصبح كحاجز منيع، ويبدأ النسق فى التقوت على نفسه حتى ليكاد أن يتأكل ذاتيا.

وأحيانا ما يصبح التفاعل داخل الأنساق الأسرية المنغلقة مقتصرا على ما تسميه «سيبرج» « المباريات التى ليست لها نهاية » (games Without end)، ذلك لأن حدود النسق تحول بينه وبين أية معلومات جديدة. وبدون وجود بيانات جديدة فإن النسق يفقد القدرة على تغيير قواعده الخاصة، ويستمر فى تدوير المعلومات داخله بنفس التفاعل ونفس الأنماط. (Sieburg, 1985, 25).

وقد سبق أن ذكرنا أن التغيير فى النسق المنغلق يكون من نمط « التغيير من الدرجة الأولى » الذى يتناول التغير فى المكونات الداخلية فقط بدون الاتصال بأية مكونات خارجية.

ومن علامات الجمود أيضا فى النسق المغلق المحدودية الشديدة فى السلوك والنمطية فى الاستجابة. فأمام أفراد الأسرة المنغلقة مجموعة صغيرة وليس متعددة أو متنوعة من السلوك يستجيبون بها فى مختلف المواقف المتباينة، ولذا تعتبر محدودية السلوك ونمطيته من أهم ملامح الأسرة المنغلقة. والمحدودية هنا لا تعنى قلة البدائل الفعلى أمام أفراد الأسرة، بل هى كثيرة ومتاحة ولكن أفراد الأسرة لا يرونها أو لا يريدون رؤيتها، فهم ينظرون إليها كأساليب سلوكية مستحيلة بالنسبة لهم، وكما لو كانوا مجبرين على أن يسلكوا على النحو التقليدى الذى ألفوه. ويستخدم المنظرون فى علم نفس الأسرة تعبير « نقص المحصلة » (Lack of equifinality) لوصف هذه المحدودية فى السلوك.

٢ / النسق المنفتح من الأسرة :

يسمى النسق الأسرى - كما ذكرنا - نسقا منفتحا عندما يكون قادرا على التغير وإعادة التشكيل خلقا لحالات جديدة متوالية ، بينما يحافظ فى نفس الوقت على الحدود التى تجعل منه نسقا متميزا ، ومن حيث إنه قادر على ادخار الطاقة وعدم تبديدها . والنسق المنفتح قادر على القيام بكلا النوعين من التغير ، تغير الدرجة الأولى الذى يرتبط بتغير المكونات الداخلية المنفصل عن أية تأثيرات خارجية ، وتغير الدرجة الثانية الذى يتم نتيجة ورود معلومات وبيانات جديدة من الخارج . والذى يحافظ على حالة الانفتاح فى النسق هى القواعد المرنة التى تسمح للنسق أن يستفيد من المدخلات البيئية الجديدة لكى ينظم نفسه ويتكيف للضغوط التى يتعرض لها .

وأول الملامح التى يتميز بها النسق المنفتح من الأسر - بعكس ما يتميز به النسق المنغلق - هو الاتصال الخارجى . ففى مقابل العزلة والانكفاء على الداخل فى النسق المنغلق يوجد الانفتاح على العالم الخارجى ، ويصف « كانتور وليهر » هذا المناخ بقولهما أن هذه الأسر تستقبل عددا كبيرا من الضيوف والزوار وتقوم بزيارات متعددة للأصدقاء. وأبوابها لا تغلق بالاقفال ، ولديها الرغبة فى استكشاف المجتمع ، وهناك حرية فى تبادل المعلومات مع وجود رقابة مرنة ورشيدة على وسائل وأساليب الاتصال ، وهو نسق لا يستقبل الضيوف فقط ، بل إنه يشعرهم بقيمتهم لما يقدمونه للأسرة . ولا يوجد تشجيع على الانغلاق أو العزلة ، وانما يسمح فقط بالابتعاد المؤقت للتخفيف من شعور عدم الارتياح والذى يمكن أن ينتج من الاكتراب الشديد. . . كل فرد حر فى تحديد تحركاته نحو الأفراد الآخرين أو نحو الأهداف التى ينشدها ما دام يحركه داخل نطاق الخطوط الهادية التى تم ترسيخها عبر الاجماع الأسرى . وباختصار فإن النسق الأسرى المنفتح يحافظ على التماسك الجماعى فى الوقت الذى يحافظ فيه أيضا على الحرية الفردية (Kantor & Lehr , 1975 , 127) .

وثانى الخصائص التى تميز النسق المنفتح من الأسر هى « المرونة » والتى تتمثل فى سهولة الاتصال بالخارج والتفاعل معه . ونظرا لأنه مسموح لكل فرد فى الأسرة بقدر أكبر من تعدد الأدوار واختلاف جوانبها ، فإنه يكون لدى الأسرة عددا أكبر من بدائل المسالك والقنوات وأساليب السلوك لكى تحل محل تلك التى تفقد قيمتها أو يتجاوزها تيار الزمن والتطور وحتى مثل تلك الأحداث الكارثية أو العنيفة والقاسية مثل وفاة أحد أعضاء الأسرة أو الانفصال طويل المدى له لا يسبب انهيار التكوين والبناء المرن للأسرة المنفتحة (Sieburg 1985, 27) . ومع وجود ذلك القدر الاكبر من المحصلة equifi-nality فإنه يمكن توقع أن يكون لدى الأسر المنفتحة قدر أكبر من الحيوية والقابلية للنمو من الأسر قليلة المرونة والأقرب إلى الانغلاق .

أما الخاصية الثالثة التى تميز النسق المنفتح من الأسر فهى الاتصالية Connectivity الأسرية . وهى القدرة على الاتصال الداخلى بين أفراد الأسرة بدون الافراط فى الانغماس Overinvolvement وبدون أن يقعوا فى شبكة أو شرك الالتحام. وتستطيع الأسرة المنفتحة بترابطها مع بعضها البعض أن تتكيف وتتوامم مع الضغوط والمشكلات التى تقابلها ، وأن تمتص العواصف والرياح التى يمكن أن تقتلع العضو المفرد فيما لو واجهها وحده . وعلى النقيض من ذلك فإن الأسرة التى لديها اتصالات داخلية ضعيفة بين أفرادها مثل الأسرة المفككة disengaged قد تتكسر وتصبح شظايا متفرقة تحت وطأة الضغوط نظرا لأن أفرادها منفصلين بالفعل عن بعضهم البعض بواسطة حدودها الداخلية السميكة . إن مثل هذه الأسر الأخيرة قد لا تتعلم أبدا أن تحل مشكلاتها بصورة جماعية أو أن يتعاملوا مع بعضهم البعض بتفهم وتعاطف ؛ ولأن كل فرد منفصل عن الآخر فإنه يجب أن يتكيف ويتوامم مع مشاكله بطريقته المنعزلة ، وغالبا ما لا ينجح فى ذلك. وتظل الأسرة ذات الاتصالات المفككة معرضة لضغوط مختلفة ولا تجد حلولا كافية لذلك ، بل قد تجد بدلا من ذلك بعض الروح العدائية بين أفرادها ، بفعل الإحباطات المستمرة وغياب التعاون والتفهم .

ونظرا لأن مثل هذه الأسرة المفككة تفتقر إلى البنائية فإنها تصبح غير قادرة على أداء وظائفها بصورة ملائمة ومنسجمة . ويجب أن نفرق هنا بين المعية togetherness التى تميز الأسر الواقعة فى شرك الالتحام وبين الاحساس القوى بالاتصال والترابط الصحى ؛ لأن الأفراد فى الحالة الأولى لديهم نقص فى الاستقلالية والتباين ، والتمايز بينهم عند حده الأدنى ، أما أفراد الاتصال الصحى فلهم شخصياتهم المستقلة وكياناتهم المتميزة .

ولا تستطيع الأسرة الواقعة فى شرك الالتحام فى ظل وجود الظروف الضاغطة أن تتصل وترابط مع بعضها البعض بطريقة صحيحة ، ولكنها قد تشكل تحالفات داخلية تؤدى إلى تمزق الأسرة وإلى انقسامها إلى ائتلافات أو تحالفات عدائية مثل الصغير ضد الكبير ، والذكور ضد الإناث . وقد لاحظ « ناثان أكرمان » أن الأسر الجامدة الواقعة فى شرك الالتحام تميل بصفة خاصة إلى الانقسام إلى كبور كمقدمة لاختيار أحد أعضاء الأسرة ليكون « كبش فداء » (Ackerman , 1967 , 48-52) (Scapegoat) .

وعلى الرغم من أن الأسرة تضحى بهذا العضو الذى اختارته ككبش فداء لها ، وأن هذا الاختيار يحطم الفرد ويهلكه فإن كثيراً من الباحثين يرون أن الفرد الذى اختير ككبش فداء ليس اختيارا صرفا من الأسرة ، بل إن هذا الفرد لديه استعداد وميل للقيام بهذا الدور (كفافى ، ١٩٨٩ ، ١٩٩٧) . وعلى أية حال فإن الأسرة باختيارها أحد الأفراد ككبش فداء لها قد وجدت طريقا للتعامل مع الضغوط التى تقابلها بدون أن تتعرض الأسرة للتفتت والتحول إلى شظايا .

و - تغير النسق الأسرى

إذ تذكرنا الخاصية الأولى للنسق وهى الوحدة الأساسية فهى تذهب إلى أن أى إضافة أو حذف فى مكونات النسق يحدث تغيرا فى النسق كله على الفور . وإذا عدنا لحالة المثل (و) وأسرته فإنه ووالده يؤلفان نسقا فرعيا عن النسق الفرعى الذى يؤلفه مع والدته ، وعن الذى يؤلفه مع أخيه وهكذا . ولنفترض فى أحد المواقف أن (و) يتفاعل مع والدته (يتناقشان فى موضوع ما) ثم ظهر الأخ والتحق بالاثنين ، فإن ثنائى (و) والأم قد أصبح ثلاثيا . ويمكن أن يمضى تفاعل الثلاثة معا ، وفى هذا الحالة سيتغير التفاعل عما كان فى حالة الثنائى ، ويحدث ذلك مثلا عن طريق احتواء الأخ وضمه إليهما ، أو أن يكونان مجموعة من اثنين ضد الثالث .

ومن الأمثلة الواضحة على تغير النسق هو أن يتعرض النسق لظروف تفرض عليه التغير مثل ولادة طفل جديد فى الأسرة ، خاصة لو كان الطفل الأول ، فإن ذلك سيغير من مناخ الأسرة ومن طبيعة العلاقات القائمة بين الزوجين واللذين أصبحا والدين الآن ، وسوف لا تمضى علاقتهما بنفس الطريقة التى كانت تمضى بها من قبل ، وفى حالة وجود طفل قبل هذا الوليد ، فإن هذا الطفل لم يصبح بعد ذلك الوليد الذى كان يحتكر كل رعاية الأم وعنايتها . وقد تخضع علاقات الأخوة لتغيرات درامية من خلال تكوين الائتلافات والتحالفات الجديدة . وحتى الأحداث الأخرى مثل الموت والطلاق يمكن فهمها بصورة أفضل لو تم النظر إليها بوصفها أمورا ستحدث تغيرا فى النسق من خلال تعديل العلاقات السابقة .

والمشكلة التى تترتب على التغير فى النسق هى أن أفراد النسق يجب أن يتكيفوا مع هذا التغير وأن يرتبوا أنفسهم على الظروف الجديدة . ويلاحظ أن استمرار النسق فى سلوكه القديم وعدم اعترافه بالظروف المتغيرة يعقد المشكلة ، ويمهد للمزيد من المشكلات ، وهو موقف نجده فى الأنساق المغلقة أكثر مما نجده فى الأنساق المفتوحة ، علما بأن التكيف للظروف الجديدة والتى يترتب عليها تغيرا فى النسق أمرا ليس سهلا دائما وكثيرا ما يشعر الأفراد بصعوبته ويكون ذلك وراء عصبيتهم وانفعالهم الزائد والسلوك المبالغ فيه أحيانا . وتجاهد الأسرة فى أن تتفاعل مع التغير وتحاول أن تبحث عن حال جديدة تتسم بالاستقرار وتستند إلى الظروف الجديدة ، وهو الموقف الأكثر صحة وسواء ويعكس مرونة النسق وقدرته على تجديد نفسه واستمراريته ونموه عبر الظروف المتغيرة . وبعض الأسر تعمل على استعادة النسق القديم أو محاولة إنكار التغير وتجنبه ، وغالبا ما يصدر هذا الموقف عن الأسرة المنغلقة ، وعلى أى حال فإن موقف الأسر من هذا التغير يعتبر مؤشرا هاما لصحتها وصحة أفرادها النفسية .

٤٧